طبعة ثانية

ربيع جابر

رحلة الغرناطي

رواية

التنوير

كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

الكتب هي ثورة العالم المخزونة ، والارث المناسب للأجيال والأمم

اضغط هنا منتدى مكتبة الاسكندرية

صفحتي الشخصية على الفيسبوك

جديد الكتب على زاد المعرفة 1

صفحة زاد المعرفة 2

الأعمال الكاملة : من هنا

المسرح العربي والعالمي

لتحميل روائع الأدب العربي والعالمي : القصة والرواية من هنا

لتحميل كتب المنظمة العربية للترجمة من هنا

بيت الحكمة

كتب الفلسفة والدراسات السياسية

اجتماع تربية وعلم نفس

كتب السياسة ، اقتصاد وقانون

الصحافة والإعلام-الفنون السبعة

سلاسل كتب ، مجلات ودوريات

مكتبة نوبل

كتب مشروع كلمة

موسوعات قواميس ومعاجم

كتب العلوم والطبيعة

أضغط هنا مكتبتي على تويتر

ومن هنا عشرات آلاف الكتب زاد المعرفة جوجل

ربيع جابر

رحلة الغرناطي

الكتاب: رحلة الغرناطي/ رواية
المؤلف: ربيع جابر
عدد الصفحات: 224 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-58-0

الطبعة الثانية: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932

تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إهداء

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

أَهُمُّ بشيءٍ واللّيالي كأنَّها
تُطاردني عن كوْنِهِ وأُطارِدُ

[1]

اليوم الأخير من آب (أغسطس) 1091.

آذان الفجر يرتفع من جوامع غرناطة.

على ضفة نهر شنيل، في بيت مطروش بالكلس أبيض، يفتح فتى ـ يُدعى محمد ـ عينيه، ويتثاءب.

في نورٍ خفيف يتسرب كالماء من ثقوب المشربية، يرى أخاه كعادته غارقاً في النوم، تحت ناموسية.

أنفاس الخريف تحرك الفضاء.

ومحمد ابن الحادية عشرة لا يعلم أن هذا الفجر الأليف لن يتكرر مرة أخرى.

[2]

في غرفة مجاورة من البيت نفسه كان الأب عبد الرحمن ـ المصاب بالفالج منذ نصف سنة ـ قد استيقظ. يوقظه الإحساس الكاذب بحركة خفيفة في النصف الأسفل المشلول من جسمه، كل ليلة، قبل آذان الفجر بساعة أو ساعتين. في نومه يعتقد ـ أو يحلم ـ أنه قوَّس ساقه اليمنى وأخذ يهزها منزعجاً من الطقس الحار. أو يتخيل أنه حرك ساقه الأخرى بعصبية، دافعاً شرشف القطن الرقيق إلى أسفل الفرشة. أو يحسّ أنه انقلب على جنبه مسنداً ثقل كامل جسمه على فخذه الأيسر، وواجه المشربية بوجهه بينما ذراعه تخبط الفضاء للتخلص من طنين بعوضة تؤرق ليله. ذلك إحساس لا يفهم كيف لا يكون حقيقياً تماماً، وهو يملأ خلاياه وأعصابه ويفور في دمه.

يفتح عينيه نائماً على ظهره فتهبط الحقيقة على صدره، سوداء كسرب غربان خارج من حصن مهجور.

أبوه سليمان، قبل شهرين، جلب نجاراً نشر خشب

المشربية إلى نصفين. فكّها وركب مفاصل حديد في الجدار وثبت مزلاجاً في وسطها. بات بوسعه، حين يشاء، أن يرفع المزلاج الدقيق ويدفعها كأباجور خشب مستنداً بجسمه إلى حافة الرف الرخامي العميق. يُشرعها ويلتقط إبريق الفخار عن الرف ويدلقه على فمه. يشرب في الصباح كأنه مشى الليل كله في صحراء سجلماسة وقبل أن يؤذن «شيخ عبد الواحد» الفجر يردّ المشربية إلى الداخل من جديد ويسند ظهره إلى الحائط ويراقب عبر الثقوب والزخارف حركة الزقاق المفضي إلى الجامع. رجال يترنحون في ضباب الصباح ماضين إلى الصَّلاة. وصيادو سمك يهبطون إلى النهر. ورعاة يخرجون مع قطعانهم إلى البرية وراء سهول الموز. وجنود من المرابطين يغادرون غرناطة للمشاركة في حصار إشبيلية.

بين الرعاة ابناه. محمد ابن الحادية عشرة، والربيع ابن الثالثة عشرة. بعد آذان الفجر بقليل يسمع ضجتهما على السلالم، وهما يهبطان إلى البهو الداخلي. يسمع الأيدي تخبط صفحة الماء في البركة وسط البهو في الأسفل. ويسمع زوجته تتحرك في المطبخ تحته، ويشمّ رائحة الخبز تخرج ساخنة من غرفة الفرن. الخِراف تستيقظ في الزريبة والثيران تخور. دلاء الحديد تطرطق، ويعرف أن بناته يحلبن الأبقار.

يرى بعض الأصحاب وقد خرجوا إلى الزقاق والمياه تنقط من أطرافهم. يتذكر حين كان يخرج معهم، ويسمع البوابة تتحرك، ويرى أباه سليمان خارجاً. بعد ذلك بقليل تظهر

الخِراف يتقدمها الكراز وكلب القطيع، وبعدها ابنه محمد وابنه الربيع.

يسند ظهره إلى الحشايا، ويبقى رأسه معلقاً في الفضاء لا يبلغ الحائط خلفه. يداه على الأرض وعيناه تتنقلان بين ثقوب المشربية وباب الغرفة. بعد قليل يسمع خطوات زوجته تصعد السلالم مع الحليب والخبز والفطور.

[3]

أخرجا الخِراف من الزريبة في غبشة الفجر. رائحة الصوف والتبن ثقيلة وساخنة. في الخارج، بينما يوصدان البوابة، سمع محمد أمه تناديه من أعلى، من وراء المشربية في نافذة أبيه:

ـ انتبهْ من الشمس.

ضحك أخوه الذي يكبره بسنتين، أخوه الوحيد، الربيع:

ـ اقطعْ شجرة موز، وتنقل في ظلّها.

رن الجرس في عنق الكراز.

رفع محمد رأسه ناظراً إلى النافذة فوقه. تحرك ظلّ في الداخل، عبر الثقوب رأى الظلّ. لم يعد يحبّ الدخول إلى غرفة أبيه. تجعد وجهه منذ أصابه الفالج. بات كأخاديد في جلمود صخر. (كان مع أبيه حين فُلِـجَ. الأب كان يرفع أقراط موز على ظهر بغل. سمع محمد صوتاً وراءه. كأن البغل سقط على الأرض. استدار فرأى أباه على التراب).

عند مدخل الجامع رأى مداسات بيضاء وسوداء.

الزقاق هنا مرصوف بالحجارة. والحجارة مبلّلة بماء الوضوء. ميّز ظهر جده بين الواقفين في الباحة.

بعد الزقاق ظهرت سهول الموز.

سارا بمحاذاة النهر، في طريق مستقيم يقطع السهول. كانا يمشيان في الاتجاه المعاكس لمجرى النهر. خروف أسود، بدوائر بيضاء على ظهره وبين قرنيه، كان يترك القطيع بين حين وآخر، فيندفع الكلب خلفه ويعيده. رماه الربيع بحجر، فأصابه في قرن من قرنيه. تردد الصدى في الصباح الساكن. حجر على عظم.

ضفادع خضراء أصغر من راحة اليد التصقت تبترد بقعر قنوات الريّ الموحلة. عبر فسحات قليلة بين أشجار الموز القصيرة المبلّلة بالندى، رأى محمد كتلاً من الضباب تفور كالحليب متدحرجة فوق صفحة النهر. كان الهواء الخفيف يدفعها نحو الضفتين فتتفتت مرتطمة بجذوع الموز والورق الأخضر الطويل في هذا الجانب، أو تنسل كثعابين بيضاء رشيقة بين بيارات الليمون والبرتقال في الجانب الآخر من النهر. هناك، في الجانب الآخر، تتباعد بيوت بطبقتين، سقوفها منحدرة، وفي باحاتها أشجار نخيل ترتفع فوق البساتين كأبراج حراسة.

السماء تضيء رويداً رويداً.

خرجا من سهول الموز إلى البرية. أشرق نور الفضاء على

القطيع. تحركت الخِراف نحو العشب الطري عند حافة الغابة. أسرع الكلب يقطع الدرب عليها. الغابة تسكنها دببة وذئاب وضباع. تسكنها أيضاً خفافيش تهاجم الماشية.

أحياناً تقضي على قطيع.

[4]

غيوم بيضاء كالثلج تتباعد في سماء عميقة الزرقة.

الأسوار البعيدة المنحدرة مع خط التلال، في الشمال، تقفل الأفق وتلمع بلون أزرق. حجارتها بركانية سوداء تمتص شعاع الشمس. بعد ساعات يتبدل لونها إلى كحلي قاتم. أسراب البجع تأتي من ورائها، من الغابات وراء نهر الوادي الكبير، غابات قشتالة وقطالونيا وآراغون.

قال محمد:

ـ تنام أم تصيد؟

قال أخوه:

ـ تقصد: أرعى أم أصيد؟

ضحك محمد. أخذ القوس وجعبة السهام، ومشى مبتعداً عن القطيع. التقط أخوه حصاة وقذفه بها. ركض محمد نحو التلال.

[5]

تلهى الربيع بقذف حجارة مفلطحة على خراف تبتعد عن دائرة القطيع المجتمع وسط السهل. كان الكلب يقوم بمهمته كاملة. خرج ضبع من بين سنديانات الفلين ثم تراجع إلى ظلمات الغابة. بلغت الشمس كبد السماء.

ظهر محمد منحدراً من بين أشجار زيتون تتباعد على سفوح التلال الشمالية. مئزره الأبيض يلفّه بنور بارد وسط كتل الزيتون الخضراء الدافئة. كان يركض مثل صخرة تتدحرج، فتقفز إلى الفضاء وتهوي. حين بلغ السهل توقف عن الركض.

اقترب فرفعت الخراف رؤوسها في حركة واحدة، كأنها جسم واحد برؤوس كثيرة.

نظرت إليه نظرة ناعسة طويلة. عيونها برك دعة. ثم انحنت وتابعت قضم رؤوس الأعشاب. دار الكلب حول القطيع ثم اقترب من محمد وفرك وجهه على ساقيه. قال الربيع مبتسماً:

ـ صيد ميمون.

[6]

ضحك محمد وجلس على الأرض.

سأله الربيع:

ـ لماذا تأخذ القوس معك في كل مرة، وأنت لا تريد أن تصيد؟

قال محمد:

ـ إذا رآني أحد شارداً في البرية، من دون قوس، يفكر أنني مجنون.

ضحك الربيع. فتح صرة الزوادة. الخبز والملح والبيض المسلوق والزيتون. أكل لقمة خبز ثم أشعل ناراً بين حجرين. صنع نعناعاً مغلياً وتفرج على الدخان يرتفع إلى السماء. رائحته صمغ صنوبر، من الأغصان الخضراء التي جمعها محمد.

سعل الربيع. كان محمد ينتهي من الطعام. التفت الربيع ليرمي تراباً على النار. خطف محمد القوس من أمامه وقفز واقفاً. قال أخوه:

ـ هذه المرة أرميك بصخرة.

أعطاه محمد القوس ثم ارتمى على الأرض. أسند ظهره إلى جذع التينة الأبيض ثم رفع جرة الماء إلى فمه. تدفقت المياه باردة على قميصه ومئزره. قال الربيع:

ـ انتبه للقطيع. قبل يومين كاد «الأسود المبقع» أن يضيع بسبب نومك.

قال محمد:

ـ أنت تنام كالدب طوال الليل. أنا لا . . .

قاطعه أخوه:

ـ فقط انتبهْ للخِراف.

حمل جعبة السهام ومشى. راقبه محمد يسير في نور ما بعد الظهيرة صوب التلال. مئزره الأحمر يرتجف في الهواء الخفيف.

فتح صرة الزوادة وأكل حبّات الزيتون الباقية.

شرب ما بقي من نعناع أيضاً.

أثقل النعاس جفنيه.

الغيوم الرقيقة كانت تتفتت وتتبعثر كالقطن فوق الأسوار البعيدة.

في السهل، بين خط الأسوار البعيدة وظلال التينة حيث يتمدد، كانت الخراف ترعى العشب مطمئنة، والكلب يحوم حول دائرتها.

جرس الكراز يرن رنيناً خفيفاً. مثل جرس معلق في الهواء.

أغمض محمد عينيه.

[7]

هزّه أخوه من كتفه. لم يستيقظ.

الليلة الماضية لم ينم جيداً. رأى مناماً أخافه. لا يذكر المنام. لكنه استيقظ خائفاً. بعد ذلك لم ينم. شخير الأب وراء الجدار وطنين البعوض في ناموسية أخيه. لم ينم. ظلّ يتقلب طوال الليل. وحين غفا أخيراً، قبيل الفجر، لم يهنأ بالغفوة. أذّن المؤذن خارج النافذة (شيخ عبد الواحد)، وردّ عليه مؤذن آخر من الجامع المقابل، فأيقظاه تماماً. الآن، نائماً في ظلال التينة، وهواء ناشف يجفف العرق عن جبهته، تذكر جزءاً من المنام. كان يمشي في مدينة غريبة، ورأى رجالاً مقيدين بالسلاسل، ثيابهم ممزقة، وأجسادهم مدماة ومتربة، يمشون أمام جنود أفارقة يحملون رماحاً طويلة.

هزّه أخوه من كتفه لكنه لم يستيقظ. حين لم يستيقظ صرخ به:

ـ محمد!

فتح عينيه وكان يتوقع رؤية هؤلاء الجنود. رأى أخاه الربيع

ينحني فوقه أبيض الوجه. في البعيد كانت الأسوار غارقة في ظلال مثلجة. دخل البرد في مجرى دمه. مثل قطع جليد. لون أحمر يغطي السماء والبريّة. وهواء محمل برنين أجراس يهبّ من جهة النهر، من جهة غرناطة. كيف مضى النهار؟

قال أخوه:

ـ ضاعت خمسة خراف. انهضْ! انهض وابحثْ معي!

بين الصخور، إلى الجنوب، وراء حقل صبّارٍ، عثرا على ثلاثة منها. الخروف الرابع كان يتلكأ عند حافة الغابة مخفياً في ظل سنديانة فلين عملاقة. لم يجدا الخامس.

قال محمد:

ـ «الأسود المبقع»؟

قال الربيع:

ـ «الأسود الملعون». ماذا نعمل الآن؟ كان عليك أن تنام؟

قال محمد:

ـ الشمس تغيب. أين يكون ذهب؟

قال أخوه:

ـ الغابة.

نظر محمد إلى الغابة. أشجار سنديان ضخمة ملزوز بعضها إلى بعض. عتمة تلتف بين جذوع قاتمة. الورق الكثيف يمنع دخول الضوء. الهواء ذاته يعجز عن ولوج هذه الغابة.

قال محمد:

ـ ضاع إذاً.

قال أخوه:

ـ الظلام لم يهبط بعد.

السماء رمادية تفقد ما بقي من نورها البرتقالي. فوق الغابة بدت منخفضة كأنها تلتصق بقمم السنديان. الغيوم المبعثرة في الأفق أسودت حوافها.

حلّ المساء وتعالى ثغاء الخراف.

قال محمد:

ـ تأخر الوقت.

قال أخوه:

ـ لن يدخل عميقاً في الغابة. ما زال صغيراً.

ودخل بين أشجار السنديان.

التفت محمد نحو الأسوار البعيدة. ضوء أحمر يلمع على أبراجها. استدار ونادى أخاه:

ـ لا تدخل الغابة.

سمع الكلب ينبح، وجرس الكراز يرنُ في البرية الساكنة.

كان وحده الآن، عند حافة العالم.

تململت الخِراف تحت السماء المعتمة، وتلاصقت ترتجف أمام زحف الظلام.

[8]

تكاثف الليل مثل حبر أسود يسيل من قارورة.

في بيوت غرناطة توهجت القناديل، صفراء تملأ النوافذ المستطيلة.

رآها محمد من البريّة.

كانت النجوم تملأ السماء الآن. بيضاء وتشبه ثقوباً.

عوى ذئبٌ عواءً طويلاً.

رفعت الخراف رؤوسها دفعة واحدة. وتحركت موجة خوف في صوفها.

الكلب تجمد منتصب الذيل والأذنين، وعيناه مفتوحتان على وسعهما ومسددتان صوب الغابة.

خرج هواء من الغابة محملاً بحفيف الأوراق ورائحة التراب الرطب.

انتظر محمد دهراً، ينادي أخاه ولا أحد يرد عليه.

لم يرجع أخوه.

كان الليل ينتصف.

[9]

قبل ست سنوات، في 1085، استولى ملك قشتالة على مملكة طليطلة الإسلامية. كان يُدعى ألفونسو السادس، وبدأ يستعد للسيطرة على الأندلس كلّها. المعتمد بن عبّاد، صاحب إشبيلية، طلب نجدة المرابطين، أصحاب الدولة الأقوى في إفريقيا.

المرابطون، بعد أن حلّوا في الأندلس وألحقوا هزيمة بالأسبان في الزلاّقة، اختلفوا مع أمراء البلاد المسلمين، فانقلبوا عليهم. سيطروا على غرناطة. سيطروا على مالقة. سيطروا على قرطبة. وأرسلوا أمراء هذه المدن أسرى إلى مراكش.

بعد ذلك ضربوا الحصار على إشبيلية.

في 9 أيلول (سبتمبر) 1091، دخلوا المدينة، وأسروا المعتمد بن عبّاد وحريمه وأهله وأرسلوهم إلى مراكش.

هذه كانت الأخبار القادمة من الغرب.

غرب غرناطة.

من الشرق أيضاً، من وراء الغابات، أتت أنباء حروب أخرى.

السِيد كامبيادور، أحد نبلاء قشتالة، غادر مدينة بلنسية على ساحل المتوسط، وزحف صوب مرسية. قطع نهر سفورة، وحاصر قرطجنة، وكاد أن يقتحم أطرية. في طريق عودته إلى بلاده أحرق مزارع، وأخذ أسرى، وسرق محاصيل وماشية.

إحدى الفِرق في جيشه بلغت غابات غرناطة الشرقية. صارت تعالب وأيائل ودببة وخنازير برّية. خيمت ليلة في السهل شرق مُخاكر ثم لحقت الجيش المتراجع إلى بلنسية، وراء نهر خوكار.

في غرناطة، كان المرابطون يمدون الموائد احتفالاً بسقوط إشبيلية.

مواعين قش من سعف النخل، مملوءة خبزاً ساخناً، توزعت بين الصواني والأطباق. بايِلا، طبق بلنسية الشهير: أرز ولحم دجاج وكركند وقريدس ومحار وبازيلا. فابادا: فاصوليا من جْيّان باللحم. كروش مدريدية: مصارين منقوعة بالخل الأبيض مع فلفل حار وبصل، محشوة بفليفلة حمراء مجففة وحمص ولحم. سردين مشوي وسلطة هليون. أرانب سلمنكية محمرة على الفحم. حجال من مالقة متبلة بالصعتر والزعفران والليمون. قراقير شقوبية وآبلة، مطلية بزيت طيب نقعت فيه أوراق إكليل الجبل، ومشوية على نار بطيئة. خراف حُمِلت من

كونكة، الدهن يقطر منها، أسمر كثيفاً، رائحته تشبه المسك، محشوة بالأرز والصنوبر والبندق. سراطين من وادي الحجارة. ثمار بحر أُعدت وفق وصفات من قطالونية مع صلصات حارة. زيتون إشبيلي محشو ومكبوس في الزيت والليمون.

كان ضجيج الولائم يعلو فوق البيوت والأشجار. يعلو ويسبح مع الهواء حتى يبلغ البيت الأبيض المنكوب على ضفة نهر شنيل.

ضاع الربيع، الابن البكر لعبد الرحمن أبي الربيع بن سليمان المازني القيسي الغرناطي.

عشرة أيام وهم يبحثون عنه، ولم يقعوا له على أثر. لا هو، ولا الخروف الملعون.

فقط وجدوا قطعة من مئزره. قماشة حمراء مزقها جبّ عليق بين سنديان الغابة.

الأب عبد الرحمن، في فرشته، والمصحف الكريم مفتوح على سورة البقرة. لا يحسّ بثقل المجلد على فخذيه. ضجة تأتي من وراء المشربية. بكاء يتصاعد من البهو الداخلي. ويقرأ: «لا يكلف اللّه نفساً إلاّ وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمنا أنت مولانا..».

[10]

بعد ثلاث سنوات، في منتصف الخريف، مات الجد سليمان.

كان خرج كعادته، بعد تناول الغذاء، عند الظهيرة، ليمشي. على رأسه عمامة زرقاء، وعلى كتفيه مئزر كحلي. في يده عصا طويلة، وفي حزامه الحرير الأحمر العريض خنجر بقبضة مذهبة.

قضى السنوات الثلاث الماضية يكرر النزهة ذاتها. يقطع سهول الموز ويخرج إلى البريّة. يمشي حتى التينة الضخمة. يجلس في ظلالها قليلاً ثم يتابع رحلته. يدخل الغابة. يدور في أرجائها محاذراً تمزيق ثيابه بالشوك والأغصان. حين يبدأ الفضاء فوق الورق الكثيف كالظلات، يفقد بياضه، متحولاً إلى الرمادي، يدور عائداً من حيث أتى. يخرج من الغابة حاملاً بعض الأعشاب أو الفطر. ثم يمشي محني الرأس نحو سهول الموز.

بين حين وآخر ينظر إلى اليمين. إلى أشباح الأسوار تتعالى

فوق التلال وترافقه نصف الطريق. حين يدخل غرناطة، ويرى القناديل تشتعل في النوافذ عن جانبي الزقاق، يتجمد الدم في عروقه: يفكر في الغابة، في الربيع، حفيده، ضائعاً في الغابة، والليل قد هبط.

يدفع البوابة. ثقيلة. خشبها مشبع بالماء. السوس يأكلها. لكن السوق يُثقلها أيضاً. ثقيلة البوابة. وثقلها يزداد بمرور كل يوم. يصعد السلالم الخشب إلى غرفة ابنه المفلوج. كي يجلس قربه ساعة. يجلس ساكتاً ولا يعرف ماذا يقول.

قال له عبد الرحمن ذات مساء:

ـ فقط لو لم أكن مفلوجاً!

منذ ثلاث سنوات يجلس قربه ساعة كل مساء. يخيل إليه أن عبد الرحمن لم يعد ابنه. منذ فُلِــج، لا، منذ ضاع الربيع، جاوز عبد الرحمن أباه سليمان في العمر. سليمان المازني، الستيني الهرم، الذي شارك في معارك بجاو ولاميفو وقُلُمرية قبل سنوات بعيدة، بات يقعد قرب ابنه المفلوج الذي لم يتجاوز الثانية والأربعين بعد، فيحس أنه قاعد مع المرحوم أبيه، لا مع ابنه.

حلّ المساء ولم يرجع الجد سليمان إلى البيت.

أم الربيع، واربت البوابة، ووقفت في الظل تنتظره. يخطر له أحياناً أن يصلّي العشاء في الجامع. في هذه الحال يتأخر كي يعود. سمعت أم الربيع صوتاً في أعماق البهو الداخلي. كان

الفضاء ما زال منيراً بعض الشيء في الأعالي، أما هنا في الأسفل، فكانت العتمة تغطي أرض البهو، وأحواض الورد حول البركة، ومياه البركة. في الظلام تبينت محمد جالساً على البلاطة قرب شجرة البرتقال. نادت عليه:

ـ محمد. رأيت جدك؟

فزعت من صوتها. في سكون المساء خرج النداء من حنجرتها عالياً. خافت أن يكون أبو الربيع سمعها في الأعلى. نادت على محمد بصوت خفيض:

ـ تعالى. تعال هنا.

اقترب منها. سألته:

ـ تعرف أين جدك؟

قال:

ـ في الغابة. كل يوم يذهب إلى الغابة.

انسحب اللون من وجهها. في العتمة رأى وجهها يشحب. يصير بلون الشمع. تذكر ذلك اليوم، قبل ثلاث سنوات، وهو يفتح عينيه تحت التينة. الشمس تغيب، وجه الربيع أبيض، والخِراف ترعى في الظلال.

رفع يده، تلمس الحرز في عنقه: حرز مربع من الحرير الأبيض، في داخله ورقة عليها آيات كريمة، ومع الورقة قماشة حمراء عثر عليها جده سليمان على شوك الغابة قبل ثلاثة سنوات.

سمع أباه ينادي من أعلى بصوت عجوز:

ـ محمد. محمد.

أحس بضعف في ساقيه. لن يصعد السلالم. لن يذهب إلى غرفة أبيه. قال لأمه:

ـ سأذهب وأبحث عنه. ربما يكون في السوق.

قالت الأم:

ـ لا.

كانت تخاف أن يضيع.

في الصباح عثروا على الجد في الغابة. كان جالساً على الأرض، وظهره يستند إلى شجرة. عيناه مفتوحتان. يده اليمنى تقبض حفنة تراب وورق سنديان يابس. والنمل يغطي وجهه.

كانت يده زرقاء كأنها نُقِعت في حجر نيل.

وفي باطن كفه علامات من أظافره.

[11]

حلّ موسم الأمطار.

عام 1097 ينتهي، ومحمد لم يعد صبياً.

طالت قامته. يحني ظهره حين يدخل غرفة الفرن لئلا يطرق رأسه العتبة الحجرية.

تبدل صوته. حين يحكي، حين يخبر قصة، تقول أمه إنه يتكلم مثل المرحوم جده. تقول ذلك فيتذكر النمل على وجه جده.

نبت شعر ذقنه. أسود خشن. لا يحلق ذقنه. يريد أن يربي لحية. يحب أيضاً أن يطيل شعره. ينتابه إحساس غامض أنه يحتاج شعراً كثيفاً ينبت كفروة ويغطي وجهه: يغطي جبهته وعينيه وأنفه وفمه وأذنيه وذقنه وعنقه. يغطي كتفيه أيضاً. ويغطي كامل جسمه. هكذا يستطيع أن يختفي وراء شعره.

يود أن يكون خفياً.

الأمطار تطرطق فوق مياه البركة، وعلى حوافها، وعلى

حجارة البهو، وأحواض الزرع التي أيبسها الصقيع. يشرد ناظراً إلى أمه وأخته الصغرى تنتفان ريش الطيور التي ابتاعها من السوق عند الصباح. يشرد متذكراً ذلك العصر البعيد. كان نائماً وسمع أخاه ينده له. فتح عينيه فرأى الربيع، وجهه أبيض والفضاء حوله برتقالي، ومشكاك طيور يتدلى ثقيلاً من حزام خصره. حِجال، ودجاج أرض، وسُمن، وديوك ماء. لم يعرف كيف رجع إلى البيت تلك الليلة. الكلب والكراز قادا القطيع. وهو ـ محمد الضائع من دون أخيه الكبير ـ تبع القطيع.

مشكاك الطيور ظلّ ملقى على طاولة المطبخ حتى سحبته القطط إلى الفناء.

أكلت القطط صيد أخيه.

[12]

حكى قصة مشكاك الطيور لمعلمه الشيخ الوليد ابن البيطار.

الشيخ كان من أصدقاء المرحوم جده سليمان. جاء إلى غرناطة من مالقة قبل سنوات بعد أن قُتلت عائلته في غزوة من غزوات البربر. فتح دكان وراقة، وصار يعطي دروساً في الخط، ويشغل في دكانه ناسخين.

قال محمد:

ـ أيقظني ووَضَع الطرائد التي صادها بالقوس والنشاب على الأرض، قرب صرّة الزوادة. ثم بدأ يبحث عن الخِراف الضائعة. في نصف الليل، حين لم يرجع، درت حول جذع التينة وقتاً لا أعرف طوله. ساعة؟ أكثر من ساعة؟ في ضوء النجوم، رأيت مشكاك الطيور، وقرب المشكاك القوس والنشاب. لم آخذ السلاح. حملت صيده فقط، ورجعت إلى البيت. لماذا فعلت ذلك، لا أفهم حتى الآن.

[13]

تساقطت الثلوج في مطلع عام 1098.

غطّت سقوف غرناطة. غطّت الأزقة. غطّت سهول الموز والبرتقال والليمون على جانبي نهر شنيل. غطّت الغابات الشرقية. غطّت التلال والأسوار أعلى التلال. غطّت المراكب المقلوبة عند ضفة النهر.

قاعدين حول موقد يحترق فيه جمر الغضا متوهجاً، قال الشيخ ابن البيطار لمحمد:

ـ لا أحد يختفي هكذا. حتى ولو في غابة. يكون خرج من الجهة الأخرى. لو مات كنتم وجدتم جثته. هيكله وعظامه. لم أكن أعرف جدك جيداً آنذاك. لكني أتذكر الحادثة. كل الناس هنا كانوا يحبونه. وأنا أتذكره. يشبهك كثيراً لكنه أضخم منك. لا أحد يختفي هكذا. كان يمر من هنا، أمام الدكان، ذاهباً إلى السوق. ودائماً يحمل قوسه.

قال محمد:

ـ كان يصيد البجعة العالية بسهم واحد. وحين يضرب خروفاً شارداً بحجر، يقول لك في أي قرن سوف يصيبه قبل أن يرمي الحجر.

[14]

تساقط رذاذ مطر طوال الليل فأذاب الثلوج على السقوف وفي البهو الداخلي وأمام البوابة. صوت المزاريب أيقظه قبل الآذان.

كان خارجاً كالعادة إلى دكان الشيخ ابن البيطار. يقعد هناك كل يوم أربع ساعات. ينسخ «مروج الذهب» للمسعودي، ويستقبل الزبائن حين يكون الشيخ مشغولاً خارج الدكان. بدأ ينسخ «مروج الذهب» قبل عشرين يوماً، وكلما نسخ صفحة تأمل الحبر الأسود يجف على الورق الخشن، وتذكر المرحوم جده.

في طريقه إلى الخارج، نادته أمه وطلبت منه أن يشتري أوقية بزر دوقس من سوق العطارين. قالت إن البراغيث أهلكت أباه وهو لا يدري لأنه لا يحسّ بها على ساقيه، لأنه لا يحسّ بساقيه أبداً.

تذكر أن جده دلّه مرة إلى بورة عند حافة الغابة تغطيها سيقان الدوقس والرازيانج. ورق هاتين النبتتين يتشابه لكن ورق

الدوقس أصغر وأدق. طول ساقها نحو شبر، ويتوج الساق إكليل كإكليل الكزبرة، بزهر أبيض طيب الرائحة. يسمونها حشيشة البراغيث. يفركون بزرها بالزيت ويطرحونها في الفرش والأغطية فيخدر البرغوث من رائحتها ويفقد قدرة اللدغ.

فكّر محمد أنه يستطيع ألا يذهب إلى العمل اليوم. يقدر أن يمشي في هذا الطقس الرائق بعد العواصف إلى البرية. الأرض موحلة لكن الهواء جميل. والغيوم تتبدد من السماء، وشمس غرناطة تشرق دافئة فوق البيوت البيضاء.

لكنه وجد نفسه مدفوعاً إلى الدكان. كان يتحرك كأنه في منام. كأنه لا يملك أن يذهب حيث يشاء. أراد الذهاب إلى تلك البورة، والتقاط الدوقس ولو يابساً من بين كتل ثلج متجمدة كالحجارة في ظلّ الصخور. أراد ذلك، لكنه وجد نفسه يعبر زقاق الحدادين، ويذهب إلى اليمين، ويدور حول جامع، ويتجاوز سبيل الماء، قرب سوق الخضر، ثم يقف أمام دكان ابن البيطار.

دخل وألقى السلام ثم جلس على الطراحة في الزاوية حيث يجلس كل يوم. ألقى رأسه على حائط الطين خلفه وحدق إلى المارة يعبرون الزقاق أمام الدكان المفتوح.

أخرج الدواة والرِيش من السل، وانتظر لحظة قبل أن يفتح المخطوط على الطاولة الواطئة قدّامه. يحسّ أنه ليس هنا. يحسّ أنه ليس هو. يحسّ أنه في منام. ولا يفهم هذا الإحساس. منذ أيام يرى نفسه صغيراً، في الحادية عشرة، وفي

عنقه حبل طويل مشدود في نهايته إلى شجرة سنديان. كانت الشجرة تتحرك بين أشجار كثيرة. ورأى جنوداً على أحصنة. جنوداً من المرابطين، لونهم داكن وشعرهم أسود. وجنوداً من الإسبان، لونهم داكن أيضاً لكن شعرهم أبيض كالثلج أو أصفر كالذهب. وكانوا يركضون حوله ويخبطونه بحبّات تين حمراء.

جذب الحبل وركض في الاتجاه المعاكس فوجد نفسه في مدينة لا يعرفها. مدينة محاصرة بسور دائري من النحاس الأصفر. ثم رأى أنه يركض فوق قنوات ماء تتشعب كأغصان شجرة. التفت إلى خلف فرأى قافلة عبيد. كانوا مقيدين بسلاسل تطرطق في أقدامهم وأعناقهم. وفي نهاية القافلة رأى نفسه. كان مع العبيد. كان عبداً. في عنقه حلقة حديد، وكتفه مدموغة بدائرة سوداء كأنه ثور أو خروف. ثم انتبه أن هذا العبد ليس هو. انتبه أنه الربيع، أخوه.

هزّ رأسه مبعداً السحابة عن دماغه. فتح المخطوط. بينما يخلص السدادة من فوهة دواة الحبر سمع صوتاً فوقه. رفع رأسه. رأى رجلاً في ثيابٍ غريبة، أصابعه مزينة بخواتم الذهب، وعلى رأسه عمامة مدوّرة حمراء وزرقاء.

قال الرجل مدهوشاً:

ـ كيف سبقتني إلى هنا؟ ما تفعل هنا؟

[15]

قال الرجل مدهوشاً:

ـ كيف سبقتني إلى هنا؟ ماذا تفعل هنا؟

رفع محمد عينيه، تفحص وجه الرجل المدوّر، قال:

ـ هل أعرفك؟ أنت تعرفني؟

بدت الحيرة على وجه الرجل. العمامة الحرير الملّونة فوق رأسه أظهرت بشرته وردية كبشرة فتاة. قال:

ـ ويخلق من الشبه أربعين.

سأله محمد:

ـ ماذا؟

قال الرجل:

ـ واحد يشبهك. يجلب لي بضاعة. الشعر نفسه، واللحية، وشكل الرأس، والجبهة. لكن ليس هذه النظرة. واحد يشبهك. في مدينتي. بيننا تجارة.

قال محمد:

ـ أين؟

قال الرجل:

ـ قرطبة. اسمي أبو يوسف. أبو يوسف العشّاب القرطبي.

قام محمد واقفاً:

ـ أنا محمد. لكن الرجل، الذي يشبهني، ما اسمه؟

قال الرجل الضخم:

ـ نسميه البلنسي. معظم بضاعته من هناك.

قال محمد:

ـ بضاعة ماذا؟

قال الرجل:

ـ أعشاب طبية. وأعضاء حيوانات وطيور. وجذور. وبعض أنواع الثمار البرية.

استند محمد إلى الحائط.

داخ وغامت الدنيا أمام عينيه.

هل يكون. . .

لم يستطع أن يتابع التفكير.

غمره عرقٌ باردٌ في لحظة، وغابت الأصوات.

[16]

الشيخ ابن البيطار دعا الرجل القرطبي، ومحمد المصفر الوجه، إلى كوب بابونج ساخن، في بيته فوق الدكان.

جالسين حول الموقد أخبرهما القرطبي عن تجارته. كان آتياً إلى غرناطة للبحث عن مخطوط للزهراوي الطبيب، فيه وصف لأعشاب إسبانية شافية من ثلاثين مرضاً.

في قرطبة دكان أعشابه وأدويته هو الأكبر. يسمونه: «صيدلية قرطبة».

البلنسي واحدٌ من صيادي حيوانات (وجذور وثمار وأعشاب) كثيرين، يزودونه بما يحتاجه لتركيب أدويته.

البلنسي يزور دكانه مرتين في السنة. مرة، في مثل هذه الأيام، في موسم ذوبان الثلوج، ومرة ثانية في بدايات الخريف. صباح أول من أمس، قبل أن يغادر القرطبي بيته ودكانه، ودع البلنسي، الذي كان مغادراً قرطبة، هو أيضاً، في طريق عودته إلى بيته في بلنسية. لن يراهِ حتى يحين موعد الزيارة الثانية، بعد انتهاء الصيف.

الشيخ ابن البيطار وعد العشاب القرطبي أن يدبر له مخطوط الزهراوي في يومين. وفي حدٍ أقصى: خلال أربعة أيام.

هزّ القرطبي رأسه ناظراً إلى محمد. كان الشيخ قد حكى له الحكاية. طوال الوقت، بينما الشيخ يحكي والقرطبي يصغي، ظلّ محمد يحدق إلى الجمرات الحمراء، كأنه يرى في خطوط وهجها رسوماً وخرائط لا يبصرها أحد غيره.

كان الهواء يتحرك في الغرفة. تيار خفي. فتتوهج الجمار. ويرى الخطوط، وسط اللهب، مثل أنهار وطرقات تتشعب إلى ما لا نهاية.

بعد خمسة أيام غادر القرطبي غرناطة حاملاً ثلاث مخطوطات، بينها «مجمع الأعشاب الشافية» لأبي القاسم الزهراوي.

كان اتفق مع محمد أن يأتي لزيارته في قرطبة حين ينتهي فصل الصيف، ويبدأ تساقط الأوراق عن الشجر.

صافحه وربت على كتفه قبل أن يمتطي حصانه. قفز قفزاً فوق صهوة الحصان المخضّب الضخم. في تلك اللحظة فقط استطاع محمد أن يتخيله قاعداً في دكان، تحيط به قوارير زجاج، يغلي أعشاباً، أو يطحن بزوراً، أو يدق أوراقاً خضراء، أو يقطر زهوراً.

قال القرطبي وهو يجذب الرسن:

ـ ليس أسهل من الوصول. اتبعْ مجرى نهر شنيل حتى تبلغ مصبه في نهر الوادي الكبير. بعد ذلك اذهبْ عكس تيار الوادي الكبير، إلى أن تدخل أول مدينة. هذه قرطبة. اسألْ أي إنسان عن الصيدلية، تصل إليّ.

[17]

كان صيفاً قائظاً.

في الدكان، والعرق يسيل من جسمه، رسم الشيخ ابن البيطار خريطة.

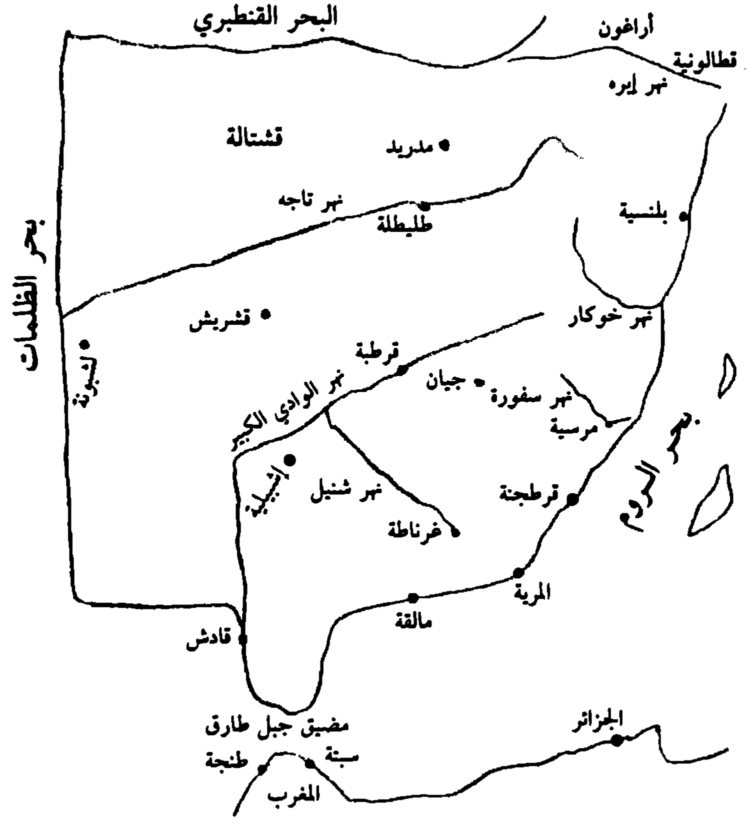

قال الشيخ لمحمد:

ـ قبل أن يكون عندي بيت ودكان وامرأة وأولاد في مالقة، عشت في قادش. كان أبي صياداً. يطرح الشبك في الماء ويسجد ويصلي في المركب وعلى الشاطئ. أخذني مرة معه إلى طنجة. قطعنا مضيق جبل طارق قبل أن تغيب الشمس. على صخور إفريقيا رأينا حية مقتولة. «أم الحيات»، يسمونها. صفراء منقطة بسواد. خمس حيات برأس واحد كأنه رأس أرنب. تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله. تقدر أن تقلب المراكب. ولا يصيدها صياد إلاَّ إذا أصابها في رأسها. حتى ميتة، كانت مفزعة. الرحلة تبقى في ذاكرة الإنسان، لا ينساها مهما كبر في العمر. السنوات مرّت، كبرتُ وصرت أباً، وفقدت أولادي. هجرتُ أكثر من مدينة، وما زلت أذكر تلك الرحلة. الشمس والأمواج وكل تلك الأسماك. نرفعها من البحر إلى بطن المركب وتلمع في ضوء البحر والظهيرة. في بيتنا في قادش، وسط البستان، كان عندنا حوض مملوء بالأسماك. كان فيه سمكة نهرية بلون توت العليق إذا لمستها بيدك ارتعد كل جسمك، فإذا أبعدت يدك زالت الرعدة. كانت أمي تقول: حين ألقط هذه السمكة يذهب وجع رأسي. وكان أبي يضحك ويقول إنها الرعدة تهزّ بدنها حتى تنسى وجع رأسها.

قال محمد:

ـ أعرفها، يسمونها سمكة الرُعاد. المرحوم جدي أخبرني. . .

قاطعه الشيخ محدقاً إلى خطوط الخريطة تجف:

ـ قادش. عمر طويل. أكون نائماً هذه الليالي ويوقظني الحر. الحر وألم الظهر. أفتح عينيّ في الظلام وأتذكر ذلك الحوض. تلك الأسماك. كنت في مالقة أحكي للأولاد عنها وأقول إنني ذات يوم سأبني حوضاً مثل ذلك الحوض وأملأه سمكاً من النهر والبحر. وأزرعه نبات المياه. النارنج الأحمر وعنب الماء وذلك التفاح الأزرق الدقيق الذي ينبت كالطحلب في قعر البرك. لكن... كم كان عمرك حين ضاع أخوك؟

قال محمد إن ذلك حدث قبل سبع سنوات.

رفع رأسه ونظر إلى الكتب في الخزانة المفتوحة ثم حدق في الخريطة من جديد. قال:

ـ في مثل هذه الأيام، قبل سبع سنوات. كنت في الحادية عشرة. كان في الثالثة عشرة.

سأله الشيخ:

ـ وتفكر فيه دائماً؟

هزّ محمد رأسه. لحية الشيخ خطّها الشيب. لكن الأصابع التي تمسك الريشة خالية من التجاعيد. تذكر القرطبي، بأصابعه البدينة والخواتم التي تزينها.

قال الشيخ:

ـ وتفكر في المرحوك جدك؟

قال محمد:

ـ ليس دائماً. لكن أخي. . .

قال الشيخ:

ـ ماذا؟

قال محمد:

ـ كل يوم أفكر فيه. ودائماً أراه حين أنام.

قال الشيخ:

ـ أفكر أحياناً في أولادي. جدك سليمان كان يقول لي تزوج. قلت له مرة سأتزوج. وكان يريد أن يدلني إلى امرأة من أقاربكم. ثم نسينا ذلك. في المنام أرى أصغر أولادي أحياناً، هشام، كان مريضاً في صدره. يسعل ويوقظنا في الليل كأنه سيختنق. كأن الهواء لا يدخل إلى جسمه. أراه في المنام. لكنه لا يسعل. ينظر إليّ بعينين كبيرتين. أحياناً يبتسم أو يضحك. أستيقظ ولا أعرف ماذا أفعل. لا أعرف أين أذهب. وأتذكر تلك الرحلة إلى طنجة. اللون الأحمر على الصخور، والبيوت قرب الشاطئ. ورائحة أبي. والبحر. أشعل حطباً وأقعد أمام النار حتى يطلع الفجر.

قال محمد:

ـ أرى نفسي في الغابة. وأسمع صوته يناديني. ينادي وينادي وينادي. الشمس تغيب والغابة سوداء كالليل لكني أراه لأنه خارج الغابة. لأنه عند حافتها. لأنه في الضوء. ضوء غروب الشمس المتلاشي. وأرى الخِراف خلفه. لا ترعى.

جامدة ترتجف. وهو يتحرك، يتقدم ويتراجع، يذهب إلى هذا الجانب، إلى ذاك الجانب، ويناديني. والضوء يتلاشى. أنظر إلى أعلى. حلّ الظلام. أسمعه يناديني ولا أقول شيئاً. لا أعرف لماذا أبقى صامتاً. وهو لا يراني. لأني داخل الغابة.

قال الشيخ:

ـ هذا الحرّ الفظيع.

قال محمد:

ـ لولا المعارك، وخطر عبور نهر خوكار، كُنت سافرت إلى بلنسية. وما انتظرت حتى ينتهي الصيف.

قال الشيخ:

ـ وكيف تجده هناك؟ وكيف تعرف أن الحراس سيسمحون لك بدخول المدينة؟ بلنسية ليست الأندلس. ثم إنك وعدت أبا يوسف القرطبي واتفقتما على الوقت.

قال محمد:

ـ لكن هذا الصيف طويل، طويل. . .

قال الشيخ:

ـ انتظرت سبع سنوات، انتظر صيفاً!

[18]

نهض متورم الأطراف من عقصات البرغش. طرف الناموسية ممزق. وحرّ نهايات الصيف فقّس مواسم متأخرة من بيوض الحشرات. طوال الليل يسمع الأصوات خلف الحائط. فكر في النزول والنوم تحت، في مدخل المطبخ، أو على أرض البهو الداخلي. لكنه خاف أن يزعج أخواته. طوال الليل استمرت الأصوات تؤرقه.

هبط السلالم إلى البهو. غسل وجهه وتحت إبطيه وعنقه. أنعشته مياه البركة. ضوء أخضر وشح السماء القاتمة في الأعالي.

وجد أمه في المطبخ تغلي حليباً وتقطع جبناً.

سألها كيف أصبحت.

قالت:

ـ أبوك محموم. لم ينل ساعة نوم. كل الليل يهذي. جسمه ساخن كالنار.

قال:

ـ أعرف، سمعتكما.

مسحت وجهها بكمها الفضفاض. فقدت ثلث وزنها في السنوات السبع الماضية. لم تعد تخبره قصصاً عن شقاوتها قبل أن تتزوج أباه، في بيت أهلها في أُقليش. أحياناً يدخل المطبخ وتكون جالسة مع أختيه (الصغرى والوسطى) وهما تضحكان وهي تحكي كما كانت تفعل قبل سنوات. لكن الصمت يخيم فور دخوله. يذهب إلى الزاوية ويملأ إبريق الفخار ماءً من الجرّة. صمت يخيم على أجسامهن، على حبّات الباذنجان اللامعة في الصواني أمامهن، على السكين في يد الوسطى، على اللوبياء في يد الصغرى، وعلى لقطينة مشطورة نصفين تنحني أمه فوق خيوطها البيضاء وشحمها الأصفر ـ البرتقالي، وتخرج البزور منها بكفٍ سمراء كبيرة. حين تأتي الأخت الكبرى لزيارتهن، في مثل هذه الأيام من الصيف، وتجلب معها بناتها الصغيرات الثلاث، يقف خلف العمود في أعلى السلالم ويراقبهن جالسات قرب البركة، يتحدثن ويضحكن. بين حين وآخر يسكتن. إحداهن تقول كلمة، أو تتذكر شيئاً، فتقطع حبل كلامها في نصفه. كلمات تبقى معلقة في الهواء لحظة ثم تتلاشى. السكون ينتقل كموجة. عدوى السكون. وهو، في الأعلى، ينتظر عودة الكلمات. في الجانب البعيد من البهو، البنات الصغيرات الثلاث، يلعبن بالرمل الأصفر كالتبر. من فوق يراهن كأنه يرى عبر السنوات، كأنهن أخواته في زمن الطفولة البائد. قبل أن يتبدل كل شيء.

قالت أمه:

ـ عليك أن تصعد وتقعد معه. نام أقل من ساعة عند الفجر. لكنه استيقظ مرة أخرى قبل أن أنزل. اصعد واجلس معه قليلاً. تعرف أنه يشتاق إليك. لماذا لا تقعد معه. أخوك الربيع كان...

سكتت ونظرت إلى الحليب يفور ويعلو فوق نار الحطب. أسرعت تحمل الوعاء إلى الأرض. الرائحة السكرية ملأت عينيه بالماء. تراجع إلى البهو ثم صعد السلالم، يحكّ ذراعه بأظافره، يكاد يدمي اللحم الساخن.

[19]

رطَّب جبهة أبيه بفوطة. فتح الأب عينيه. بدتا لمحمد مثل ثقبين في كومة التجاعيد. الجفنان انكمشا ويبسا كقشرة خوخ مريضة. عينان دقيقتان. حدقتان كالإبر، كرؤوس النبال. نظر محمد إلى النور يملأ ثقوب المشربية. رائحة الغرفة مزيج من دخان عود البخور الذي يحترق بطيئاً في الزاوية، ومرهم البزور والأعشاب الذي تدهنه أمه على جسم أبيه. ورائحة أخرى أيضاً. رائحة جسم مفلوج منذ سنوات، النقرس بدأ يفتت عظمات قدميه: من الأصابع والإبهامين إلى الكعبين إلى الكاحلين.

قال الأب:

ـ أين أنت؟

قال محمد:

ـ هنا. قربك.

قال الأب:

ـ لا أراك. أين أنت؟

قال محمد:

ـ هنا. أنا هنا. هذه الحرارة تمنعك أن ترى جيداً. هل تراني الآن؟

قال الأب:

ـ أرى المشربية. أرى الإبريق. أرى جسور الخشب، جذوع الصنوبر المسوّدة في السقف، أرى...

أغمض عبد الرحمن عينيه. كانت شفته السفلى ترتجف. الشعرات البيضاء تحتها ارتجفت أيضاً.

قال محمد:

ـ حاول أن تنام.

فتح الأب عينيه. اتسعت حدقتاه. بياض الحليب يفور منهما، والبؤبؤان ينكمشان كأنهما يغرقان في بركتي الحليب، كأنهما يسقطان إلى أعماق الجمجمة. ثم اعتكر البياض، مال إلى لون البنفسج، ثم إلى لون الكرز، ثم إلى لون الدم القديم الفاسد.

قال الأب بصوت تخنقه البحّة:

ـ أنت من؟ كيف دخلت إلى هنا؟

قال محمد:

ـ جرب أن تنام. هذه الحرارة تتعبك. تسخن الدماغ. حاول أن..

قال الأب:

ـ من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

قال محمد:

ـ أنا ابنك يا أبي.

قال الأب:

ـ الربيع؟

قال محمد:

ـ أنا محمد.

قال الأب:

ـ ابني الربيع؟ أنت ابني الربيع؟

نظر محمد بعيداً. إلى جمرة البخور على الصحن الفضي ذي القاعدة العريضة. إلى الأغطية المطوية في الزاوية وفوقها مخدة أمه. إلى نقط الضوء على الحصيرة. عليه أن يشرع المشربية. الهواء يقتل هنا. رجل في غرفة كل هذه السنوات!

قال الأب:

ـ خفنا عليك. كل الليل نبحث عنك. كيف تدخل الغابة في الظلام؟ كيف تفعل ذلك؟

قال محمد:

ـ أنا محمد يا أبي. الربيع ليس هنا.

قال الأب:

ـ أحسّ بقدمي يا ابني. منذ زمن بعيد لم أحسّ بأصابع قدميّ. لكني أحسّ بها الآن. مثل الدغدغة. أو عقص الحشرات. كأن نملاً يزحف على ساقي. قطعان نمل.

نظر محمد إلى قدميّ أبيه ملفوفتين بجلد أبيض ـ رمادي، خشن متموج ومتدرج كحراشف السمك. أخته الكبرى جلبت هذا الجلد معها من رأس بالوس. الصيادون هناك يقصدون البحر وراء جزر الكنارية من أجل هذا الجلد. قطعة منه قطرها خمسة أشبار، وبالكاد تكفي لقص نعلين، قد يبلغ ثمنها خمسمئة دينار. بالمبلغ ذاته يقدر الواحد أن يكتري بغلة. لكن البغلة لا تشفي من النقرس.

قال الأب:

ـ خفنا أن تكون ضعت في الغابة. أو هاجمتك الذئاب. حين كنت صغيراً دخل صبي الغابة ولم نجده إلاّ بعد أيام. كانت الوحوش التهمته. لم يبقَ منه إلاّ العظام. بيضاء تبرق كالثلج في أعالي جبال الشارات. عظمة هنا وعظمة هناك. بين الفطر والشوك والوزال، كان صبياً من عمرنا. يلعب معنا في مزارع الموز ونسبح معاً في النهر. وكان سريعاً في الجري مثلك. ويصيب بالحجر مثلك. و. . .

قال محمد:

ـ حاول أن تنام.

ارتجفت شفتا الأب. سكنت حركة لسانه. حين أغمض

عينيه بدا كأنه يرحل إلى فضاء آخر. كأنه يغادر الغرفة (نور المشربية يملأها بعواميد غبار مضيئة الآن، عواميد منحدرة، أسطوانية، تتموج فيها آلاف الذرات). كأنه يهبط إلى فراش مريح في قعر بئر باردة.

أخته الكبرى قالت وهي تخرج الجلد من صندوق خشب الكرز الثمين إن هناك طريقة واحدة لصيد هذا الحيوان. طريقة واحدة ويوم واحد.

ـ حيوان غريب رأسه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع. جلده قبل أن يجفف في الشمس له شعر كشعر جلد العجل. له عنق وصدر وبطن وفي الخلف رجلان كرجلي الضفدع يثب عليهما كما يثب الضفدع. وليست له يدان. يسمونه السمك اليهودي، لأنه كل ليلة سبت يخرج من البحر عند غياب الشمس ويلقي نفسه على شواطئ الجزر الصغيرة ويكف عن الحركة. يبقى هكذا على الشاطئ لا يأكل ولا يشرب حتى تغيب الشمس ليلة الأحد. عندئذٍ يقفز إلى البحر ولا سفينة في العالم كله تقدر أن تلحقه بعد ذلك.

انتظمت أنفاس الرجل المريض. كأنه ينام. فكّر محمد أن يقوم ويخرج. ثم قال لنفسه انتظر لحظة لئلا يستيقظ. تحت النافذة عَبَر قطيع أغنام. سمع الثغاء والجرس ونداء الراعي وتذمر أصحاب المتاجر. ما هذا الراعي الذي ينهض بعد شروق الشمس، ويقود أغنامه بين الناس والبضائع المعروضة في الطريق، ويوسخ الأرض بعراً بعد أن مرّ الكناسون؟

فتح الأب عينيه، قال:

ـ ظلت أمك تبكي وأنا أقول لها أنك..

سكت وأغمض عينيه.

استقام محمد. ظهره يؤلمه من هذا القعود راكعاً على ركبتيه. وقف ونظر إلى الجسم الملقى أمامه. كم يكون وزنه؟ يعرف أن أمه تحمله مع أخته الصغرى. وحدهما تستطيعان حمله بكل سهولة إلى الجانب الآخر من الغرفة. تنفضان الفرشة وتستبدلانها بأخرى وتمسحان الأرض تحتها بمياه الكلس.

كان نائماً الآن. شخيره ينتظم. وتخيل محمد ذلك الحيوان البحري على الشاطئ. صيادون يكمنون له خلف الصخور والأشجار. ليلة السبت يرتاح. إذا اقترب منه عقرب أو سلطعون لم يلمسه. في هذه اللحظات فقط يقدر الآدمي أن يصيده. بالنبال. بالرماح. أو حتى بضربات السيوف.

قال الأب:

ـ الآن وقد رجعت إلينا، أموت في سلام. كل هذا الوقت أنتظرك. كم يوم مرّ. لكنك عدت. أمك وأخوتك في عهدتك. الآن لا أخاف أن أمضي إلى ربّي. دعوتي مستجابة، وسبحانه الرحيم.

في البهو الداخلي علا صراخ البنات الصغيرات. يتراكضن حول البركة ويلعبن بالماء.

[20]

لكن الأب لم يمت.

هبطت الحرارة بعد ثلاثة أيام، واستعاد وعيه. غير أنه تبدل. فقد قسماً من روحه في الحمى. خرج منها ناقصاً. كأنه خسر أجزاء من جسمه خلال ليالي الهذيان، ومصارعة المرض، واستذكار الموتى والغائبين.

لم يعد يحكي إلاً نادراً. حتى حين يقرأ المصحف الكريم يتمتم همساً، أو يقرأ في سرّه. أم الربيع كانت تنتظر لحظات تلاوته القرآن من يوم إلى يوم، لتقعد في باب الغرفة، وتسمع الكلمات تسبح إلى أذنيها. الصوت ونغمة الصوت وسلوى الصوت. انتهى كل هذا. أبو الربيع خسر صوته بعد الحمى.

قبل انتهاء الصيف عاد أحد أصحابه القدامى من رحلة بعيدة وقد حمل له قفصاً يعجّ بالطيور الملونة. بلابل وهداهد وعصافير حبّ وكنارات. وضعوا القفص قرب النافذة. كانت أم الربيع تدخل عليه في أي وقت من أوقات النهار فتراه يحدق إلى الطيور، غارقاً في تغريدها الهادر كشلال، ويده تسند ذقنه.

[21]

رجع محمد عند العصر. كانت أمه تسقي شجرة البرتقال. من أعلى يأتي تغريد الطيور. البهو غارق في ضوء المغيب. والحيطان تعتم رويداً رويداً.

قال:

ـ الشيخ ابن البيطار يريدني أن أسافر إلى قرطبة بعد خمسة أيام. أو بعد عشرة أيام. لا يعرف بعد.

التفتت الأم. حركتها ثقيلة كأنها تسبح في الماء. والنور البرتقالي يلون ثوبها الأبيض. قالت:

ـ قرطبة؟

قال:

ـ يريدني أن أوصل كتاباً. وأن أبتاع مخطوطاً من ورّاقٍ يعرفه. لن أغيب طويلاً.

قال الأم:

ـ قرطبة تبعد ثلاثة أيام.

قال محمد:

ـ يومين. وعلى الحصان يوم واحد. لن أتأخر.

قالت الأم:

ـ وماذا نقول لأبيك؟

قال محمد:

ـ لن نقول شيئاً. لن يعرف. أذهب وأرجع قبل أن يعلم بغيابي.

مشت الأم نحوه. ارتبك. لكنها توقفت قرب البركة. أنزلت الدلو في الماء. ملأته. واستدارت نحو مساكب الكزبرة والبقدونس والنعناع.

ارتفع تغريد الطيور في الأعلى. أحسّ محمد أن زقزقتها تثقب السماء. خُيِّل إليه أن حيطان البيت، لا قضبان القفص فقط، يمكن أن تتكسر متساقطة أمام هذا الدوي.

[22]

بعد يومين فقط، هبّت عاصفة من دون إنذار، قادمة من الشمال، من البحر القنطبري، وقضت على صيف الأندلس في ليلة واحدة. في الصباح تباعدت الغيوم، والتمعت أوراق الأشجار مغسولة بالمطر. بانت الشمس، قرصاً أصفر رسم قوس قزح فوق نهر شنيل. وتململت البجعات في أوكارها.

لكن الخريف كان قد بدأ.

وريقات يابسة وخضراء، صفراء وحمراء وبرتقالية داكنة، طفت على وجه النهر الذي يقطع المدينة، توزعت في الأقنية، وتطايرت فوق حجارة الأزقة، تخبط حيطان البيوت مندفعة مع الهواء، وتخشخش في موسيقى يكررها الفضاء.

غادرت أسراب البجع أوكارها. بدأت هجرتها إلى الجنوب.

ظهرت بطانيات صوف منشورة على الشرفات.

[23]

اليوم الأخير قبل ابتداء الرحلة قضاه في الدكان يخطّ جزءاً من كتاب «الحاوي في الطب» لأبي بكر الرازي.

كان منذ أسابيع يستغل أوقات راحته خلال النهار في نسخ هذه الأوراق. يريد أن يقدم مجلداً من الرازي هديةً للعشاب أبي يوسف القرطبي حين يحلّ عليه ضيفاً، غداً أو بعد غد.

بعض المقاطع ينسخها بسرعة. من دون تفكير. مثل مغزلٍ يغزل حريراً. العجلة تدور والخيط يطول، مثل كلمات تكرّ من رأس الريشة حروفاً على الورق.

بعض المقاطع يأخذ وقتاً، تجمد الريشة في يده بينما ترسم الحروف. يشرد ثم يقرأ الكلمات مرة أخرى. تؤخره القراءة. لكنه يقرأ:

«... إن الطحال إذا صبَّ إلى فم المعدة فضلاً سوداوياً أورث كآبة والوسواس السوداوي. وربما يهيج الشهوة. وربما لم تهج به. وأفسد الهضم في الحالين جميعاً... ولا علاج

أبلغ في رفع الماليخوليا من الأشغال الاضطرارية التي فيها منافع. أو مخافة عظيمة تملأ النفس وتشغلها جداً. والأسفار والنقلة. فإني رأيت الفراغ أعظم شيء في توليد الكآبة والفكر في ما كان ومضى...

يعالج هذا الداء بالانشغال وبالصيد والشطرنج وشرب الشراب والغناء... مما يجعل للنفس شغلاً عن الأفكار العميقة. لأن النفس إذا تفرغت تفكرت في الأشياء العميقة البعيدة. وإذا فكرت فيها فلم تقدر على بلوغ عللها حزنت واغتمت واتهمت عقلها، فإذا زاد وقوي فيها هذا العرض كان ماليخوليا...

وأصحاب الماليخوليا لا يخلون أن يفزعوا من شيء ما، لأن هذه العلة إنما هي الفزع من شيء ما...

الطبري قال الوسواس يكون من الحر واليبس...

بولس قال الماليخوليا إما لغلبة السوداء على الدماغ وحده، وإما لأن البدن كله سوداوي.

الإسكندر الأفروديسي قال ليدع أصحاب السوداء الكرنب والجرجير والخردل والثوم ولحوم البقر الغليظة واليابسة والحريفة والحامضة... وليلزموا اللهو الدائم واللذات والحمام والصيد وأشغال الفكر والانتقال...

شمعون قال أعراض الماليخوليا الكآبة والحزن والخوف والضجر وبغض الناس وحب الخلوة...

الإسكندر قال اسرعْ بعلاج الماليخوليا فإنه إن طال سبّب للدماغ سوء مزاج لابثاً يصير له شبه بالحال الطبيعي لا يبرأ البتة. . .

ومما يسهل السوداء مرق الديك العتيق المطبوخ باللبلاب. . .».

توقف محمد عن القراءة ورفع رأسه. القصبة ثقيلة بين أصابعه. أصابعه تؤلمه. الإصبع الثاني عند العقدة. كلمة «لبلاب» تكررت في رأسه. خارج الباب كان ضوء الخريف الطازج الأصفر يسبح فوق قناة الماء.

ركض صبيّان يطاردان عجلاً فالتاً. سمع صرخات وضحكات، ثم ابتعد الصخب وعاد السكون. الضوء الأصفر استمر يسبح فوق قناة الماء.

[24]

عـنـد الـفـجـر أسـرج فـرسـه، ودّع أمـه، أخـذ الـصـرّة الـتـي حضّرتها، وانطلق إلى خارج غرناطة.

تبعد قرطبة عن مدينته 33 فرسخاً باتجاه الشمال. كان اليوم أحداً. قبل أن يقطع طرف السهول، بعد ساعات، ويدخل أحراج الملّول، سمع أجراساً تُقرع.

النهر يجري، والشمس تتسلق السماء. شعاعها ضعيف، يبث الدفء في الأوصال، ولا يزعج.

[25]

على الفرس العالية، معلقاً في الفضاء، على الرحال الملبس بالديباج، ونسائم عليلة تلامس وجهه، أحسّ نفسه يغادر جسمه.

النهر يتدفق، خريره كسقسقة طيور الجنّة. رائحة الخصوبة ترتفع عطرة من التراب. وهو كأنه ليس هو. بينما بيوت غرناطة وقناطر قصورها وأبراج أسوارها تبتعد وتغيب وراء ظهره، تسلل إليه ـ كأن من الهواء الذي يزداد خفّةً كلما تقدم في الطريق المحاذية لنهر شنيل ـ شعورٌ بالانشراح لم يعرفه منذ أمدٍ بعيد.

ظلمات تغادر جسمه. أو أنه هو يغادر الظلمات. لم يعد يعرف من يكون. نسي كل شيء. لا يدري من أين يأتي. لا يدري إلى أين يذهب. صوت النهر يكفي. وهذا الهواء. الفضاء المفتوح. وروائح الأرض والنبت والطير والحيوان. فرّت ثعالب في المروج الصفراء إلى يساره. فروات حمراء توجّ كاللهب. رأى أرانب بيضاء ورمادية تطلّ برؤوسها وآذانها الطويلة من أوكار بين حجارة تغطيها الطحالب. في النهر اندفعت أسماك سلمون،

عكس التيار، تقفز في الهواء، تلمع فضية في الضوء، ثم تهوي في الماء.

رفع رأسه ورأى سماء زرقاء عالية. وغيوم بيضاء يدفعها تيار هواء مرتفع نحو الشرق. هذه رياح بحر الظلمات. وهو كأنه يرتفع نحو تلك الغيوم.

أسراب لقالق وكراكي ظهرت بيضاء ووردية وحمراء تحت قماشة السماء. مثلثات من الريش الملون تطير جنوباً، تهرب من برد الشمال المقترب.

أغمض عينيه. هدير النهر في أذنيه. يقوى ويضعف حسب المجرى وارتفاع الأرض وهبوطها. الفرس تعرف طريقها. الفرس تتبع الدرب.

لكن هو، محمد، هل يعرف طريقه؟ هل يعرف إلى أين يمضي؟ هل يعرف ماذا يترك خلفه؟ هل يعرف ماذا سيجد في نهاية الطريق؟

لم يفكر في ذلك. لم يكن يفكر في شيء. كان على الطريق. يسبح في فضاء الخريف الأصفر تحت سماء زرقاء تعبرها غيوم ناصعة البياض.

ولم يكن أحداً.

كان خارج جسمه.

شارداً في الفراغ.

الراكب على المطية ليس هو الرجل الذي كان في غرناطة قبل قليل.

[26]

قَطَع سبع قُرى، تتشابه ببيوتها البيضاء وبساتينها المسورة بالعوسج، كأنها قرية واحدة ينقلها النهر في جريانه ويطرحها على ضفته بعد كل منعطف.

طواحين الهواء تلقي ظلالها على الطريق. أشجار البندق كثيرة، تتسلق جذوعها سناجب زرقاء ـ رمادية لم يرَ في مثل حجمها من قبل.

في ساحة القرية الرابعة أو الخامسة، رأى جامعاً مربعاً بمئذنة مدوّرة ترتفع بين نخلات مثقلة بعناقيد البلح.

القُرى التي لا يعرف أسماءها يسأل الأولاد في الطرقات عنها. يتبعونه حتى طرف القرية. حين يبتعد يرجعون من حيث أتوا، أو ينحدرون صوب النهر.

بعد القرية السابعة رأى قناطر رومانية تقطع النهر، وجسراً يربط الضفتين. في ظلال القناطر رأى نساء في أثواب زرقاء وحمراء، بطرحات على رؤوسهن، يفركن الثياب بالصابون

غارقات في الماء حتى أفخاذهن. كن يضحكن، وطيور بيضاء تتقافز بينهن وتطير فوق عواميد حجرية سقطت في النهر وتحطمت تيجانها المنقوشة.

بعد ذلك قطع أحراج زان ودردار، وحقلاً من نبات الألفا، وأرضاً محروثة ترابها قاني الحمرة ورائحتها زعفران.

عند المغيب وجد نفسه أمام غابة حور وصفصاف. كان الهواء يطقطق على الورق، فيقلبه على الوجهين، ويبدل لونه من الأخضر إلى الأبيض، ومن الأبيض إلى الأخضر. انعكس الضوء على الأوراق، تلألأ كأنه يقع على قطرات مطر.

[27]

خرج من بين أشجار الحور والصفصاف، فرأى سهول زيتون تمتد أمامه إلى ما لا نهاية.

سهول لا يُرى آخرها. يخترقها النهر. ضوء النهار يتلاشى، ومعدته تقرقر. ترجل عن فرسه. في ساقيه خدر.

فتح صرّة الزوادة.

يحتاج أن يشبع جوعه.

بعدئذٍ يفكر أين سيقضي الليل.

[28]

بعيداً في السهل المعتم، بين أشباح الزيتون المرتعشة، لاحت حفنة أضواء.

ـ ضيعة أو مزرعة، قال محمد ناظراً إلى الفرس، ثم ربّت على عنقها الساخنة.

الغيوم تغطي السماء. بانت نجمة المساء لحظة ثم اختفت. إحدى كتل الغيوم بدت أقل سواداً من محيطها. كانت رمادية فاتحة. حين توغل في السهل المظلم، متقدماً بمحاذاة النهر، غمره ضياء أبيض مفاجئ. رفع رأسه فرأى القمر. كتلة الغيوم الرمادية تمزقت إلى قطع متناثرة، وقرص القمر الناصع البياض بان في مركزها.

النور الثلجي غمر الكون كلّه. شجر الزيتون. أوكار الطيور في الشجر. الأرانب التي تقافزت مذعورة بين الجذوع. بعضها قفز من أعماق جذوع مثقوبة ومجوفة، خشبها مجدول ومصقول، يلمع من القِدم. عصافير الدوري استيقظت في أعشاشها. تراكضت سناجب وفئران. زحفت السحالي، جلدها

يبرق. وحده النهر تابع جريانه المعتاد. لكن النور انعكس على صفحته، والتمع في عيني الفرس، وعلى سيور السرج وبكلاته الحديد.

عبرت غيمة وجه القمر. تحرك الهواء مخشخشاً في ورق الزيتون. تموج الضوء والظل في السهل. كان محمد يتهادى فوق فرسه. وخيّل إليه أنه يعبر بحراً. سهل زيتون في قعر البحر.

أزكمته رائحة الزيتون العطرة. في فمه طعم جبن وخبز وإجاص. قطف حبّة زيتون خضراء. رماها في فمه. لم يقضمها. فقط تركها تنزلق بين لسانه وسقف حلقه. كانت مرّة ورطبة. بصقها ونظر حيث سقطت فرأى عظمة طويلة على الأرض، لونها بلون الحليب.

في الجانب الآخر، بين أشجار محروقة، جذوعها متفحمة وملطخة بالبياض، رأى خرائب وبيوتاً مهدمة.

كانت الأضواء لا تزال بعيدة. وانتبه أنها بعيدة عن مجرى النهر أيضاً. إذا قصدها تخلى عن خط سيره، عن النهر الذي يدله إلى الطريق. ماذا يفعل؟

كان يرتجف. الهواء يبرد كلما تقدم شمالاً.

غطّت الغيوم القمر.

توقفت الفرس.

نعقت بومة في شجرة قريبة.

رأى عينيها الواسعتين في الظلام.

ظهر القمر مرة أخرى. لحظات قليلة لكن كافية. رأى جسراً خشبياً يقطع النهر، وكوخاً في طرف الجسر، على الضفة الأخرى.

[29]

الكوخ كان مسكن الناطور.

عجوز جاوز الثمانين أو التسعين، جامد ناتئ العظام طويل الأطراف، جسمه مملوء عقداً، يشبه شجرة زعرور.

دعاه إلى الجلوس، وأضاء سراجاً.

فاحت رائحة الزيت والفتيل القديم.

في الزاوية موقد تتوهج فيه جمار، وفوق الموقد قدر سوّدها الحطب، يتصاعد منها البخار. رائحة قمح وعظم ولحم يسلق على نار بطيئة.

من النافذة يدخل صوت الحقول. ضوء القمر يسقط على أفخاخ حديد، على بعد أشبار من الموقد. بعض الأفخاخ أحمر نبيذي أكله الصدأ. أسنانها مكسورة.

قال الناطور:

ـ هذا نصف عملي. نصب الأفخاخ للغرير والنيص والقنافذ. لا تترك حبة زيتون واحدة على التراب. وإذا وجدت

سهلاً بلا أفخاخ رعته وخلفته مغطى ببزور الزيتون. لن تصدق بشاعة المنظر حتى تراه.

قال محمد:

ـ رأيت بيوتاً محروقة قبل الجسر.

قال الناطور:

ـ حلَّ فيها وباء. أحرقها أهلها. من بقي حياً منهم. لم أكن أعيش هنا في ذلك الوقت. لكني أعرف الحكاية. من أين تجيء؟

قال محمد:

ـ من غرناطة. منذ الفجر وأنا أسافر.

قال الناطور:

ـ غرناطة، أعرفها. قنوات ماء في الطرقات أينما مشيت. ومزارع موز. لماذا تركتها؟

قال محمد:

ـ أبحث عن أخي.

تصاعد نقيق ضفادع النهر. نور السراج الأزرق تراقص على الحيطان وعلى ألواح خشب النافذة.

قال الناطور:

ـ هناك شجرة زيتونٍ عجيبة قرب غرناطة، صحيح؟

قال محمد:

ـ لا أدري.

قال الناطور:

ـ قرب غرناطة، بلى، كنيسة عند عين ماء وشجرة زيتون يقصدها الناس في يوم معلوم من السنة، فإذا طلعت الشمس في ذلك اليوم فاضت تلك العين بماء كثير. ويظهر على الشجرة زهر الزيتون ثم ينعقد زيتوناً ويكبر ويسودّ في يومه ويؤخذ. أطيب زيتون في العالم. دسمه كاللحم.

قال محمد:

ـ في غرناطة؟

قال الناطور:

ـ وماء العين يشفي من المرض. ويُقال هناك شجرة مثلها في طليطلة، في حديقة قصر الملك. صحيح؟

قال محمد:

ـ لم أذهب إلى طليطلة، لا أدري.

قال الناطور:

ـ أنت تعبان. السفر يتعب.

نهض وفتح صندوقاً خشباً لم يكن محمد رآه من حيث يقعد. أخرج من الصندوق بطانية وفرشها على الأرض. تحت النافذة.

قال الناطور:

ـ يمكنك أن تنام في فراشي. هذه البطانية تكفيني فراشاً. جسمي اعتاد نوم التراب.

قال محمد:

ـ لن أغفو لحظة إذا تركتك تنام هناك.

قام واقفاً واقترب من الناطور. شكره ثم تمدد على البطانية.

استرخى الناطور في فراشه. مدّ يده وجذب السراج إليه ثم نفخ الفتيل نفخة واحدة. انطفأت الشعلة. لم يعد يسمع إلاّ صوت الضفادع والقدر التي تغلي فوق الجمار. بين حين وآخر يشق الليل نعيق بوم.

محمد، ممدداً على ظهره، نظر عبر النافذة المشرعة إلى سماء تتبدد غيومها. أغصان شجرة جوز وارفة كانت تتمايل وتلامس سطح الكوخ.

حفيف أوراقها القاسية نبّهه إلى هدير النهر. كانت أذناه اعتادتا الهدير الذي رافقه طوال النهار، حتى لم يعد يسمعه. بات النهر يجري صامتاً في رأسه.

هذه أول مرة ينام في فراش غريب في بيت غريب في أرض غريبة.

ظهرت نجوم واهنة في السماء.

من البعيد البعيد جاء عواء ذئاب.

قال الناطور وهو ينقلب ويواجه الضوء الأبيض البارد الذي يملأ الفضاء:

ـ المزارع المحروقة التي رأيتها أهلها من قبذات وقَبْرَة وفرِّيش. الوباء خرج من بيوت الفرِّيشيين. بيوض سوداء صغيرة تظهر على الجسم. على العنق وتحت الإبطين. ثم ترتفع الحرارة وكل ما في جوف الإنسان يخرج منه. بيوض تشبه بيوض الفرّي، بيضاء مبقعة بالبنّي والأسود تنمو تحت الجلد.

سمع محمد قرقعة في الخارج. قال:

ـ ما هذا الصوت؟

ضحك الناطور:

ـ قنفذ أعطاك عمره.

طارت عصافير من شجرة الجوز.

قال الناطور:

ـ السرّ في الفخ أن تزيّته جيداً.

نظر محمد إلى جمار الموقد. كان النعاس يطبق جفنيه. والأصوات تبتعد وتموت.

قال الناطور:

ـ يقولون أنهم أتوا إلى هنا لأنهم سرقوا مالاً من هناك. من قراهم. تعرف فِرِّيش؟ كلّها رخام أبيض يقلعونه من أرضها، وحديد. يقولون لهذا ضربهم الوباء.

أغمض محمد عينيه فرأى غرفة أبيه. الجسم الملقى عاجزاً، رائحة البخور، ونور الشمس في ثقوب المشربية.

قال الناطور:

ـ غرناطة، أعرفها. يُلقط من نهرها سُحالة الذهب الخالص.

جلس محمد على البطانية. قال:

ـ الجو ساخن هنا.

ضحك الناطور.

ـ هذه كلماتي تجعله ساخناً. إني في هذه البرية وحدي طوال السنة. لا أرى الناس إلاّ حين يأتون لحراثة الأرض أو تقليم الأغصان أو قطف الموسم. منذ أيام لم أكلم مخلوقاً. لهذا تعجز عن النوم.

أطلق الناطور ضحكة أخرى، وقال:

ـ تصبح على خير. نحكي في الصباح.

[30]

هبت رياح عند الفجر فطرطقت النافذة. كان الكوخ كلّه يطرطق، كأن الريح سترفعه وترميه في الفضاء.

خرج محمد ليرى فرسه.

ربّت على عنقها، فكّ الحبل، وسار معها حتى النهر. كانت عطشى. الغُميِّم (الأخضر من الكلأ تحت اليابس) الذي التهمته في المساء أعطشها.

غسل محمد وجهه وعنقه ويديه وقدميه. غسل صدره وتحت إبطيه. نزل في الماء وفرك ثيابه على جسمه. رأى أغصاناً بأوراق حمراء وصفراء عالقة في النهر تحت ألواح الجسر. كان الماء بارداً. خرج من النهر، والسماء تضيء. أبعدت الريح الغيوم. كست الزرقة السماء. وهبّت الريح مرة أخرى وجلبت غيوماً سوداء.

ومن جديد تباعدت الغيوم، وازرقت السماء.

[31]

أخرج محمد السرج من الكوخ. ظهر الناطور من بين الأشجار يحمل غريراً في كيس.

قال محمد:

ـ عليك أن تبقى. هذا لحمه أطيب وأطرى من القمح الذي أكلناه.

ضحك محمد:

ـ مع أفخاخك لن أغادر هذا المكان أبداً.

أسرج الفرس ثم أخرج كيساً من جعبته. خشخش الكيس في يده. فكّ خيط الحرير وأدخل يده في الكيس. أخرج حفنة دراهم ودنانير. دراهم مضروبة بأسماء محمد الأول وعبد الرحمن الأول وسليمان المستعين. ودنانير مضروبة بأسماء عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني وهشام الثاني. وفي المركز منها نُقشت الشهادة «لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له»، و «لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه».

مدّ يده وفتحها أمام الناطور.

قال الناطور:

ـ ماذا؟ تريد شراء كوخي؟

ابتسم محمد. قال الناطور:

ـ تعال.

دخل إلى الكوخ. فتح الصندوق وأخرج جرة فخار بحجم أرنب، وأفرغها على البطانية. من بين النقود أخرج عملة برونزية، نُقِش عليها اسم موسى بن نصير بالحرف اللاتيني وعلى قفاها رسمان محاهما الزمن وضغط الأصابع. كانت حواف العملة خضراء خضرة الطحلب. لكن البرونز التمع ـ رغم قِدَمه ـ في ضوء الصباح الخريفي.

أخذ الناطور ديناراً من يد محمد. ثم دفع العملة البرونزية في كيسه. قال:

ـ للذكرى.

على الفرس، عند طرف الجسر، رفع محمد يده مودعاً صديقه. قال الناطور وهو يرفع كيس الغرير عالياً:

ـ حين تعثر على أخيك، تعالا لزيارتي.

[32]

قبل أن تعلو الشمس ارتفاع رمحين في السماء، بلغ أطراف السهل. انحدرت الأرض أمامه مزروعة بأشجار الفاكهة، وظهر نهر الوادي الكبير.

كان عريضاً، يجري كأنه لا يجري، ومراكب تبحر فيه.

حيث يصب نهر شنيل رأى أشجار صفصاف عملاقة، ظلالها تغطي كروم عنب مرفوعة على عواميد.

بين الكروم الكثيفة تباعدت بيوت. الدخان يتصاعد من المداخن. والألوان تضج في البساتين.

استدار برأسه نحو الصفصاف العملاق مرة أخرى، فرأى أغناماً سوداء ترعى في الظلال. قربها كان النهر العريض معتكراً، كأنه يأخذ لونه من جلودها.

[33]

انهمر المطر غزيراً قبل أن يبلغ قرطبة. فاجأه قبيل العصر وكان وسط السهل.

همز الفرس، وانطلق تحت حبال الشتاء. النهر أيضاً، تضاعف جريانه. أحسّ الفرس بطيئة، بطيئة. كانت تجري بعكس اتجاه الوادي الكبير. نقاط الماء ملأت عينيه.

قطع الجسر الروماني وولج المدينة من البوابة الكبيرة في سورها. تحت قنطرة البوابة الضخمة ترجل عن فرسه. المساحة المسقوفة اكتظت بالخيول والناس وعربات البضائع. طافت الأقنية، وغمرت المياه عتبات المخازن.

ربّت على عنق الفرس. كانت تلهث. عضلات العنق تنبض، والبخار يخرج مع أنفاسها. سخونة جسمها بثّت بعض الدفء في أوصاله. كان مبللاً حتى العظم.

سأل رجلاً أمام دكان مجاور للقنطرة عن صيدلية أبي يوسف العشّاب.

ابتسم الرجل:

ـ أنت من قرطبة؟

قال محمد:

ـ هذه أول مرة أدخلها.

قال الرجل:

ـ من أين أتيت؟

قال محمد:

ـ غرناطة... هل تعرف أين الصيدلية؟

قال الرجل:

ـ أنا أيضاً هذه أول مرة أدخل قرطبة.

اقترب رجل من أعماق الدكان. كان يحمل قطعة جلد وإبرة طويلة في يده. قال:

ـ السلام عليكما.

ردّا السلام. أدخل الرجل الإبرة في قطعة الجلد، ونظر إلى البخار يتصاعد من جسم الفرس.

سأله محمد:

ـ تعرف صيدلية أبي يوسف العشّاب؟

قال الرجل وهو يمسح قطعة الجلد بكفّه:

ـ طبعاً أعرفها. أكبر صيدلية في قرطبة. اذهبْ في الطريق حتى الجامع الكبير. عند الزاوية سبيل ماء. اذهبْ في الزقاق

جنب السبيل حتى تبلغ كنيس اليهود. تعرفه من رخام القبّة الملون. قبالة الكنيس زقاق، تذهب فيه حتى تبلغ نافورة. وسط النافورة تمثال. يد التمثال مرفوعة تحمل مفتاحاً من الحجر البركاني الأسود. انظرْ حيث يشير المفتاح ترَ الصيدلية. الشيخ أبو يوسف يعرف كيف يدلّ الناس إلى صيدليته.

رفع الرجل ذراعه وأشار إلى مئذنة تتعالى فوق البيوت. تحت المئذنة ظهرت قناطر عظيمة. قال:

ـ الجامع الكبير، المسجد الجامع. السبيل تراه قبالة الباب الشرقي، عند الزاوية.

توقف المطر. شكر محمد الرجل وامتطى فرسه. كان الرجل الآخر، الغريب مثله، اختفى وسط الجموع.

[34]

المياه تقطر من الشرفات والأفاريز. المزاريب تسيل. أقنية الماء تطوف فوق الطرقات، والقاذورات تندفع بين الأقدام والحوافر.

المدينة كلها تسبح في نور برتقالي شفاف.

الزقاق قرب النافورة ساكن. كأنه خارج قرطبة المزدحمة بالناس والبضائع والتجارة الصاخبة. غرد بلبل على سطح أحد البيوت.

ترجل محمد. الفرس لعقت ماء عن الأرض. في باب الصيدلية، باب البناء الكبير المكون من طبقتين، كرسي لا أحد يجلس عليه.

تقدم محمد وقرع الباب المفتوح.

رويداً رويداً اعتادت عيناه عتمة الداخل.

كان المكان فسيحاً، لكن بلا نوافذ تنيره.

قبو يمتد في جميع الاتجاهات، مظلماً، بصناديق مبعثرة في أرجائه، ومشاكيك نبات مجفف تتدلى كالعناقيد على الحيطان.

قال محمد:

ـ السلام عليكم.

ظهرت رؤوس من بين الصناديق. فتية سود عراة الجذوع، سواعدهم وأيديهم بيضاء يغطيها الكلس.

تكاثروا خارجين من وراء الصناديق والطاولات والرفوف. عشرة فتيان أو أكثر.

حين أخبرهم أنه يبحث عن الشيخ أبي يوسف العشّاب، ابتسموا، فبانت أسنانهم بيضاء كالثلج وسط سواد بشرتهم.

[35]

صعد سلماً حجرياً. في الطابق العلوي، وسط قبة واسعة طُليت بطين أحمر أرمني يلمع بريقاً، استقبله الشيخ القرطبي.

كان في غلالة تستريّة تضاعف ضخامة جسمه. بلا خواتم في أصابعه. وبعمامة زرقاء بسيطة على رأسه.

جلسا قرب كانون بزرافين قد ملئ جمر الغَضَا. الأرض كلّها كانت مفروشة ديباجاً أحمر رومياً بلون السقف. من المشربيات تسرب ضوء المغيب كمياه ترشح عبر فخار.

طلب الشيخ القرطبي من الخدم أن يعدوا حماماً لضيفه، وثياباً جافة وساخنة.

قال محمد:

ـ أحمل لك هدية.

قال القرطبي:

ـ انتظر حتى ترتاح. تتحمم ونتعشى ثم نتبادل الهدايا.

[36]

كانت المياه تسيل ساخنة على جسمه. عبر قمرة في الجدار، رأى سطح البيت المجاور، تعلوه حظيرة قماّري. عاد المطر يتساقط، رذاذاً خفيفاً منتظماً. شتلات حبق ومردكوش ومنتور التمعت أوراقها تحت المطر البرتقالي.

حلّ المساء.

نَشَّف جسمه. لَبِس ثياباً دافئة فضفاضة.

ارتفع آذان العشاء.

في القبة الحمراء وجد المائدة بانتظاره. الصواني مملوءة أرزاً أصفر، صفت فوقه صدور الدجاج، سافاً فوق ساف. صدور بيضاء تُزينها حبّات جوز ولوز وفستق وبندق وصنوبر، كلّها قُليت في السمن. بين الصواني توزعت أطباق جبن مشكلة. باذنجان مشوٍ يسبح في الحامض وزيت الزيتون والثوم المدقوق. قطع خبز ساخنة تعلوها شرائح مشوية من الفليفلة الحلوة الحمراء مغمسة في الزيت. بيض قُلي مع الفطر ورُش

فوقه نثار جبن. وفي طرف المائدة، تحت المشربية تقريباً، إناء كومت فيه أصناف الفاكهة. رمان وتفاح وعنب وبرتقال وسفرجل وتين.

وقف القرطبي.

كان وحده في الجانب الآخر من المائدة.

في الزاوية تحركت ستارة بلون الياقوت.

صعد قلب محمد إلى زلعومه.

من ينتظره وراء الستارة؟

أخوه؟

[37]

قال أبو يوسف:

ـ صاحبنا البَلَنسي لم يأتِ بعد. هذه أيامه. منذ ثلاث سنوات يجيء في الوقت نفسه، زمان الخريف، ونزول حيوان القرمز من السماء على شجر البلوط كالنمل الأحمر. الصناديق التي رأيتها في الأسفل مملوءة قرمزاً. كلّها لصاحبنا البلنسي حين يأتي. هذه تجارتنا. يعطيني صيده وأعطيه هذا القرمز. أفضل صِباغ للصوف. للصوف فقط. لا يصبغ القطن ولا يصبغ الكتان. لكنه يجعل الصوف ألين وأجمل لوناً حتى من الديباج الرومي.

قال محمد:

ـ يكون تأخر على الطريق؟

كانت المائدة رُفِعت. قُدِم لكل منهما جام ماء ورد. بعدئذٍ استرخيا قرب الكانون، يأكلان عنباً، وحبات رمانٍ ملأت جاطاً من الخشب البنّي، ويتحدثان.

قال أبو يوسف وهو يخرج مسبحة كهرمان من ثيابه:

ـ يكون تأخر على الطريق. الطريق من بلنسية إلى هنا ليست سهلة. نهر خوكار بات حدود الأندلس في الشرق. عبوره صعب كعبور نهر تاجه في الشمال. والمعارك هذه الأيام لا تتوقف على الحدود.

تحركت الستارة مرة أخرى في الزاوية. كأن تيار هواء يعبر خلفها.

قال أبو يوسف:

ـ تقيم عندي حتى يأتي. بيتي فارغ منذ زواج الأولاد. لا أحد منهم يزورني. كلهم خارج قرطبة.

قال محمد:

ـ اسمخ لي.

وأخرج الكتاب الذي نسخه في غرناطة.

زانه أبو يوسف في يده، قبل أن يفتحه في حضنه. كان وضع المسبحة على المخدة قربه. سمع محمد صوتاً كالرفرفة قادماً من وراء الستارة.

قال أبو يوسف:

ـ الرازي! هذه هدية لا تُقدر بثمن.

كانت قرطبة تخلد إلى النوم. حتى الأصوات البعيدة تلاشت وهمدت.

قال أبو يوسف:

ـ عندي ابن يعيش في طليطلة. زوجته نصرانية. يتاجر بالزعفران. أجود زعفران ينبت في تراب تلك البلاد. الغلال تبقى في مطاميرها سبعين سنة لا تتغيّر. يرسل إليّ منها ـ كل سنة ـ ماعون قش. يصلني قبل موسم الأمطار. وفي قعر الماعون يضع مسبحة.

ضحك أبو يوسف ودفع مسبحة الكهرمان إلى محمد:

ـ رائحتها زعفران، صحيح؟

قام وجذب صندوقاً من تحت المشربية وفتحه. مسابح عنبر وعاج وفضة ويُسر وذهب وياقوت وكَورَبا ومرجان ولؤلؤ وفيروز. كلّها تفوح برائحة واحدة: زعفران.

قال أبو يوسف، ويده على بطنه الملآنة:

ـ أتعب في هذا الوقت. أتعب كثيراً هذه الأيام. في المساء. وفي بداية موسم الأمطار. الإنسان يكبر بسرعة. تكون صبياً في يوم، ثم تنظر حولك، تتسلى بعشبة أو تمشي هنا وهناك، وبعد ذلك تنتبه. لم تعد الشخص الذي كان هنا قبل سنوات. تتبدل. تشيخ. ماذا أقول لك؟ ربما تفهم الآن لماذا هجرني أولادي إلى مدن وراء الأنهار والحدود.

ضحك واهتز شحمه. نظر إلى أصابعه المتوردة، وقال إن زوجته كانت تضحك مثله. كان يضحك، فتبدأ بالضحك معه، ويصير في الختام يضحك من قوة ضحكتها، وهي تفعل مثله،

إلى آخر الليل، كمن فقد عقله. سكت وأقفل صندوق المسابح. قال:

ـ مرضت، وكل الأعشاب والأدوية لم تشفِها. حين تأتي الساعة تأتي الساعة. سبحان اللّه.

حمل كتاب الرازي ووضعه فوق الصندوق. مرر أصابعه على قطبة الخيط الظاهرة في كعب المجلد. وغرق في الصمت.

مرة أخرى سمع محمد رفرفة وراء الستارة. هذه المرة تأكد أنها رفرفة طائر. قال:

ـ تحسب أنه سيأتي هذه السنة؟

قال أبو يوسف خارجاً من شروده:

ـ ولماذا لا يأتي؟

قال محمد:

ـ هذا ما أخاف منه: أن يأتي ولا يكون أخي.

قال أبو يوسف:

ـ كيف لي أن أعلم؟ علم ذلك عند اللّه. لكنه يشبهك. يشبهك كأنه أخوك.

نظر محمد إلى حبّات مسبحة الكهرمان. قال:

ـ أولادك يتشابهون؟

ضحك أبو يوسف:

ـ كالقرود يتشابهون.

تراجع إلى خلف. حرارة الكانون بلّلت جبهته بقطرات عرق. قال:

ـ هديتك خلف تلك الستارة. طائر ربما تكون سمعت به، لكن لا أحسب أنك رأيته من قبل. لا أعتقد أن في الأندلس مثله عند رجل غيري. يسمونه طائر النار. وثمنه، لا أعرف ثمنه، لا أعرف كيف يمكن أن يبيعه أحد!

قال محمد:

ـ لا يمكن أن أقبل هدية كهذه، ليس...

قاطعه أبو يوسف مبتسماً:

ـ هديتك ليست الطائر يا صاحبي. هديتك أن تنظر إليه. يكفي أن تنظر إليه مرة واحدة في الحياة كلّها. ذلك يكفي.

نظر محمد إلى الستارة. فكّر أنها بيضاء في زواياها. وأن لون الياقوت يتركز في الوسط منها فقط. تذكر أخاه. يركضان في البرية، صوب التلال. يتسلقان الهضبة. يتسابقان إلى الأسوار العالية الزرقاء. يسبحان في النهر. يطاردان الثعالب بالقوس والنشاب. كيف مرّت السنين؟ في أي أرضٍ يمشي أخوه الآن؟ هل يكون في بلنسية؟ هل يأتي إلى قرطبة؟ وكيف يعلم أن هذا الرجل هو نفسه...

قال أبو يوسف:

ـ يكفي أن تراه مرة. بعد ذلك لن تنساه أبداً. لكن قبل أن تراه عليك أن تسمع حكايته.

... إذا كان لم يمت في الغابة. إذا كان خرج منها حيّاً.

إذا كان بلغ بلنسية. يمشي وحيداً أو مع آخرين. ماضياً إلى وراء نهر خوكار حُراً أو أسيراً. إذا كان حدث ذلك، فلماذا لم يرجع إلى غرناطة؟

ـ يُقال إن هذا الطائر لا يعيش إلاً في جبل قاف الذي يحيط بالعالم. يحكون في قابس في إفريقيا أن جماعة من أهل البادية عثرت على «طائر نار» يحتضر بين أعشاب واحة. كان في حجم الحمامة غريب اللون والصورة لم يروا قبل ذلك اليوم مثله في أرضهم. كان فيه من كل لون أجمله وهو أحمر المنقار طويله، وحين حملوه معهم في الصحراء...

فتى في الثالثة عشرة. صياد، وسريع، ويصيب بالحجر حدقة العين، ولا يخشى دخول الغابات في الظلام. لكن كم فرسخاً يسير، وحيداً بلا مال وبلا مطية وبلا صاحب!

ـ حين حملوه في الصحراء تعافى الطائر من مرضه. كان منظره عجيباً. فحملوه إلى صاحب قابس، ابن وانمو الصنهاجي. كان هذا يملك في قصره حديقة تضم عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. وثروته لا تعرف حدوداً. تعرف تجارته؟ يحمل الملح المعدني في قوافل جمال ويمشي في رمال كالبحار، ويكون معه الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار، ويحملون معهم الزاد لستة شهور حتى يبلغوا غانة. هناك يبيعون الملح وزناً بوزن الذهب، أو أكثر. لأن الذهب التبر ينبت في رمال غانة كما ينبت الحشيش في سهول الأندلس.

. . . وإذا كان أخوه لم يرجع إلى غرناطة، وهو يستطيع أن يرجع، لأنه ليس في سجن، والدليل أنه يتاجر بالقرمز وبالأعشاب، ويسافر من مدينة إلى مدينة، وكل سنة يحلّ مرتين ضيفاً على صيدلية قرطبة. . . إذا كان أخوه قرر ألا يرجع إلى غرناطة، إلى بيت أهله، إلى بيت أبيه وأمه وأخواته وأخيه. . .

ـ حملوا طائر النار إلى الصنهاجي صاحب قابس، فسألهم من أين أحضروه، وهل يعرفونه؟ فقالوا لا، لم نرَ مثله من قبل. وكان القصر يعجّ بالزوار، وكلهم نظروا إلى الطائر، ولم يعرفه أحد ولا سمّاه. فاشتراه ابن وانمو بوزنه ذهباً وأمر بقصّ جناحيه وإرساله في القصر.

. . . ربما يكون أخوه الربيع وقع في الأسر آنذاك. حين خرج من غابات غرناطة الشرقية. كانت تحدث غارات على تلك الأنحاء آنذاك. ونبلاء بلنسية المسيحيون كانوا يرسلون جيوشاً لشن الغارات.

ـ أرسلوا الطائر في القصر، فلما جنّ الليل أُشعِل في القصر مشعلٌ من نار. فما إن رآه ذلك الطائر حتى قصده وأراد الصعود إليه. فدفعه الخدام. فجعل يلحّ في التقدم إلى المشعل. فأُعلم ابن وانمو بذلك فأتى يرى ما يحدث.

. . . الجنود شاهدوه خارجاً من الغابة. كان صبياً ضائعاً. وحملوه معهم. أخذوه إلى مدينتهم. إلى بلنسية وراء النهر. هناك عاش بينهم. صار واحداً منهم، البَلَنسي. . .

ـ قال ابن وانمو للخدم اتركوا الطائر. ابتعدوا فطار حتى صار في أعلى المشعل وهو يتأجج ناراً. واستوى في وسطه وجعل يتفلى كما يتفلى الطائر في الشمس. فأمر ابن وانمو بزيادة الوقود في المشعل من خرق القطران وغيره، فزاد تأجج النار والطائر على حاله لا يكترث ولا يبرح، ثم وثب من المشعل بعد حين...

... الفتى الغرناطي لا يعود غرناطياً. الشيخ العشّاب قال إن صاحبه البلنسي عنده بيت في بلنسية. بيت وامرأة وأولاد. ويحمل لهم من قرطبة، مع قرمز تجارته، الثياب وأصناف البضائع الغريبة. الغرناطي الذي كان يرعى الخِراف مع أخيه الصغير، عند حافة غابة من سنديان الفلين، نسي من يكون. ذهب يبحث عن خروف ضالٍ، فأضاع نفسه.

ـ وثب الطائر من المشعل وطار في أرجاء القصر. كان أسرع الآن. وتحليقه أذكى. طار من قنطرة إلى القنطرة، وبدا كأن جناحه المقصوص طال من جديد...

إذا كان ذلك الصياد البلنسي تاجر القرمز، هو نفسه الربيع، فماذا يقول له حين يراه غداً أو بعد غد؟ يسأله لماذا لم يرجع إلى البيت؟ إلى غرناطة؟ حيث الأب المفلوج يموت بطيئاً بطيئاً، منذ سنوات، من قبل أن يضيع الربيع. أم يسأله كيف عاش وحيداً، من دونهم، من دونه هو، محمد، طوال هذه السنين؟ أم يبقى ساكتاً وينتظر أن يبدأ هو الكلام؟ أليس هو الأخ الأكبر؟

قال أبو يوسف:

ـ تريد أن تراه؟

قال محمد:

ـ الآن؟

قال أبو يوسف:

ـ هذا أفضل وقت. الليل. في السكون.

قام واقفاً ومشى نحو الستارة. أمسك بها من طرفها واستدار ونظر إلى محمد، واقفاً على بعد خطوة، ومسبحة الكهرمان تتدلى من أصابعه.

قال أبو يوسف:

ـ انظر!

وأبعد الستارة. أبعدها لحظة واحدة فقط. رأى محمد طيراً لا يشبه الطيور. طيراً يشبه كل طيور العالم، ولا يشبه أي طير. برق ألوان يتوهج في عصفور بحجم الحمامة، يرفرف بجناحيه فتتطاير الألوان منه كشرارات نار. ومن الشرارات يخرج صوت.

[38]

ذلك الخريف لم يأتِ البَلَنسي إلى قرطبة.

أمر أبو يوسف عبيده الصغار بالكفّ عن جمع القرمز من غابات البلوط وعن تخزينه في الصناديق، وفرش الكلس حول الصناديق لحمايتها من أذى العقارب والفئران والقطط والسنانير.

قال لمحمد:

ـ أفكر في اقتناء جارية رومية. نصيحة الرازي الطبيب لعلاج الكآبة.

أرسل محمد خبراً إلى أهله، مع تاجر قرطبي مسافر إلى غرناطة، أنه سيتأخر، وأنه لا يعرف متى سيرجع بالتأكيد، بسبب أعمال طرأت، وعليه أن ينهيها.

قبل تساقط الثلوج قال للشيخ القرطبي:

ـ قررت أن أسافر إلى بلنسية.

كانا يقفان في بابِ الصيدلية. ومفتاح التمثال في مركز النافورة مسدد نحوهما.

قال أبو يوسف العشّاب:

ـ تعرف لماذا وضعت هذا التمثال هنا. كان يوجد مثله فوق خليج قادش. طلسم يمنع الأعداء عن المدينة. كان البحر يظل هائجاً، ليغرق كل سفينة تجرب الهجوم على قادش. ذات يوم سقط المفتاح من يد التمثال، سقط في البحر. ابتلعه البحر وسكن. لم تعد تتحرك فيه موجة واحدة. وهاجم البربر قادش. وفتحوها.

قال محمد:

ـ الجو بارد. السماء زرقاء، لكن الريح تقص العظم.

قال أبو يوسف:

ـ لماذا لا تقضي الشتاء هنا؟ وفي الربيع تسافر إلى حيث تسَافر.

قال محمد:

ـ أخاف إذا تأخرت أن. . .

قال أبو يوسف:

ـ أن ماذا؟ أنت لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا تركت مدينتك وشغلك وبيتك، وقطعت السهول والوديان إلى هنا؟

قال محمد:

ـ كي أجد أخي.

قال أبو يوسف:

ـ وسوف تجده. لا بد أن يأتي يوم وتجده. لكن أن تسافر الآن، والثلوج على الباب، والمعارك قائمة على ضفة نهر خوكار، فهذا ليس من العقل بشيء. انتظرت أكثر من سبع سنوات، انتظرْ هذا الشتاء بعد.

[39]

طوال نهارات الخريف والشتاء لازم محمد، الشيخ القرطبي، في الصيدلية، يتلقن أسرار حرفته. واقفاً أمام الميزان الفضي الدقيق، المثبت على طاولة من خشب الجوز، تعلم فنون العطارة بينما يتعلم فنون مداواة المرضى بالأعشاب.

نور الشتاء كان يدخل عارماً من نوافذ طويلة وعريضة. نوافذ يمكن تغطيتها بالدرفات الخشب والسجاجيد في لحظات، فتغمر العتمة القبو، ويسرح الفتية السود الصغار في الأرجاء.

أخبره أبو يوسف:

ـ يحبون العتمة. لا أعرف لماذا. انظرْ إليهم!

في جانب من الصيدلية تكومت جرار وقوارير وصناديق على رفوف تكاد تتكسر. الحيطان تغطت بالمشاكيك. عناقيد ثوم وبصل وفليفلة دغلية بلون الدم تدلت من جسور السقف. قرب باب، في أعماق القبو، ازدحمت قدور مختلفة الأحجام، وملاعق خشب بقبضات طويلة، وأوان معقوفة غريبة الشكل،

تستخدم في عملية التقطير. إلى جانبها حزم من الحطب. بعضها ما زال أخضر. خارج الباب، على مصطبة مربعة، تربع موقد. وفوق الموقد، في جانب منه، فرن من القرميد والطين. في زاوية المصطبة قن دجاج، وأقفاص قرب القن اجتمعت فيها سناجب وأرانب. على السطح تتمة المجموعة: حظائر من خشب، مقسمة إلى غرف بفتحات في السقف للتهوئة، يجتمع فيها القرقدن وفارة المسك والقنفذ والزبّابة والغُرير والحجل والخلد والنيس والزبزب. حظيرة الخلد كانت مملوءة تراباً أحمر. خلفها امتدت مساكب أعشاب: كرفس وأوفاطوريون وحشيشة الملاك وكيس الراعي وذيل الحصان.

قال أبو يوسف:

ـ يبقى أن أبني حوضاً في جانب المصطبة للسمك والمحار والأصداف.

قرب الميزان الفضي مجلد ضخم وقصبة ومحبرة. كل ما يجري وزنه ووضعه في الجوارير الصغيرة، يدخل في هذا المجلد. أسماء عربية ولاتينية ويونانية، وقربها أرقام، ووصف درجة اليباس والرطوبة.

كل نصف ساعة أو أقل تدخل امرأة إلى الدكان. كل ساعة يدخل رجل. الشيخ أبو يوسف لا يستقبل من الزبائن إلاّ معارفه. عنده خدم للاستقبال والحكي والبيع. يستقبل الزبائن والتجار الذين يأتونه بالبضاعة، أو يشترون منه كميات كبيرة

لدكاكين العشّابين في أنحاء البلاد. أحياناً يدعو الصيادين القادمين من وراء الأنهار إلى كوب شراب، في القبة الحمراء، أو على المصطبة الخلفية، أو على السطح.

يجلس محمد إلى جانبه ويستمع إلى الأخبار. معارك صغيرة وكبيرة وجيوش تزحف من مدينة إلى أخرى، وأنباء غريبة من وراء الحدود: جيش من الإسبان يغادر باتجاه الشمال، وليس باتجاه الجنوب! البابا في رومية (وهو للفرنجة بمنزلة الإمام) يجمع العساكر منذ سنتين ويرسلها للجهاد في الأراضي المقدسة!

بينما يتفرج على العبيد الصغار يتسلقون السلم الخشبي الطويل إلى السطح العالي حاملين دلاء الماء، سمع محمد اسم مدينة بلنسية يذكر مرة ثم أخرى. كانت المياه تطوف عن جوانب الدلاء وتتساقط على أرض المصطبة. وفي النهار الخريفي المصفر كالزعفران أحس محمد أن فراسخ لا تحصى تمتد بينه وبين ما يسعى إليه.

كان أبو يوسف يبتسم، ويجذبه من ذراعه، ويدله إلى الأعشاب في المساكب، أو إلى الثمار على الأشجار بينما يتجولان في الحقول، ويقول:

ـ ترى هذه النباتات ذات الأزهار الصفراء، هذه تشفي اليرقان في ليلتين. ومثلها الكتّانية. كل اضطرابات الكبد نعالجها بهذه الزهرة، وبِبُقلة الخطاطيف والطرخشفون.

ينحني ويقطف ورقة خضراء مبقعة بالأبيض، كأنها مصابة بمرض فطري. ويقول:

ـ حشيشة الرئة، هذا اسمها، للسل والالتهاب في القصبة.

على بلاطة يكسر حبّة جوز ويفتحها. يقول:

ـ ألا تشبه الدماغ؟ كُلْ منها. تفتح الذهن.

يضحك ويتأبط ذراع محمد ويمشيان. يخبره عن دير في جبال طليطلة يضم أصنافاً من الأعشاب لم يُرَ مثلها في الأندلس من قبل.

يقول:

ـ يأتون بها من أطراف العالم. ويزرعونها في حدائق الدير. لا يبيعونها إلاّ يابسة. ولا يبيعون الزهور والبزور. فقط الأوراق. وإذا أرادوا بيع البزور ملحوها أو حمصوها قبل ذلك. هؤلاء الرهبان لا يقبلون منافسة.

ينحني ويحفر بخنجره حول جذر أسود ويقتلعه من التراب. جذر متشعب يابس بلون القرفة.

يقول:

ـ في عمري المصران كارثة. هذا مرخ لا يُعلى عليه. هو ولحاء زهرة الثلج، والزرواند. الزرواند الأسود، لا الأزرق. هذا الأخير، الأزرق، نبيع منه كل يوم بعشرين درهماً أو ثلاثين. للنساء. الزرواند الأزرق، وجذر المرتينية الخرطومية. للخصوبة. والحفاظ على الأزواج.

يجلسان عند حافة الحقول. نهر الوادي الكبير يجري تحتهما. يحصيان قناطر الجسر الروماني الذي يربط قرطبة بربضها. خمس عشرة قنطرة.

يتفرجان على النهر يجري معتكراً بالطمي. الهواء يحرك وبر الفراء على كتفي الشيخ القرطبي، ومحمد يمضع عشبة أخيليا خضراء. (لوجع أسنانك، قال له أبو يوسف، نسميها عشبة النجارين).

قال محمد:

ـ رأيت أبي في المنام. كان جالساً في المشربية ورجلاه مطويتان تحته. وكان يحمل فخارة مدورة في يده. فخارة مزروع فيها زهرة بلون الذهب. أردت أن أسأله عن اسمها ثم تذكرت أنك أخبرتني عنها من قبل. حين التفتَ صوب الباب ورآني واقفاً أنظر إليه، سألني هل أعرف اسم هذه النبتة. آذريون الحدائق، قلت له. النساء يحببنها. يصنعن منها صباغاً يُبدل لون الشعر. العشّابون يستعملونها لتقوية القلب، ولشفاء الحصبة والجدري. الشيخ أبو يوسف يقول إن النظر إلى تويجياتها الذهبية يكفي لبلوغ صفاء الذهن وإدخال البهجة والسرور إلى النفس.

قال الشيخ:

ـ الزهرة في المنام معناها أنك تجد شيئاً تريده.

قال محمد:

ـ كنت أحكي له وأحس أنه لا يسمعني. كان ينظر إليّ، وكنت أرى عينيه واسعتين كما في الزمان القديم. قبل أن يمرض. كان يأتي إلى البيت عند العصر ويرانا أنا وأخي جالسين قرب البركة نلعب لعبة التقاط الحصى، أو نشدّ وتراً على قوسٍ، أو ننظف سمكاً. وكان يقعد هناك، على حافة البركة، يشرب أو يأكل شيئاً، ويتحدث معنا. هكذا كان وجهه في المنام. لكني أحسست أنه لا يسمع كلماتي. إنه بعيد. عبر النافذة كنت أستطيع رؤية الثلوج على قمم جبال الشارات. ثلوج حمراء في الغروب.

سكت محمد. الشيخ القرطبي أشار إلى مركب محمل بالماعز يعبر النهر. بصق محمد بقايا الأوراق من فمه. أحسّ بخدر في شفتيه. نظر إلى الأغنام تتأرجح وتتدافع في المركب.

قال أبو يوسف:

ـ في بحر الروم جزيرة يُقال لها جالطة مملوءة بالغنم الجبلية مثل الجراد المنتشر، لا يمكنها الفرار من الناس. إذا رست المراكب هناك أخذت منها ما لا يحصى. أغنام سمان كبار، ونعاج وحملان. وليس في تلك الجزيرة غير الغنم. وفيها عيون وحشيش وشجر وجبال. كل يوم تقصدها السفن لأنها على طريق إفريقيا في البحر. والأغنام لا تفنى لكثرة ما فيها.

نظر محمد إلى خروف يبتعد عن الدائرة المكتظة بالقطيع في جانب المركب. تحرك الخروف فوق حبالٍ وألواح خشب،

وبين براميل وشِباك ممزقة. لونه أسود، وعلى ظهره بقعة مثل نجمة بيضاء.

قال الشيخ:

ـ نعود؟

وقف محمد وأعطاه يده. كان ضخماً ثقيلاً، ونهض لاهثاً.

قال بين أنفاسه:

ـ لا بد من الجواري والقيان. التنزه لا يكفي.

وضحك، وربّت على ظهر محمد.

[40]

ترك قرطبة في موسم تفتح الأزهار. على الفرس العالية، معلقاً في الفضاء، على الرحال الملبس بالديباج، ونسائم باردة تلفح وجهه، أحسّ نفسه يغادر جسمه.

تدفق النهر غزيراً. منسوبه ارتفع حتى بلغ أغصان الأشجار عند ضفتيه. ارتفع حتى غمر النواعير، وملأ فراغ القناطر الرومانية. كان يتدفق في هدير منتظم، وخيل إلى محمد أن المياه كلّها تصبّ في عينيه. مراوح الطواحين العملاقة تدور، والغيوم البيضاء تتقطع، والسماء تمتد عالية وبلا نهاية.

رائحة الخصوبة تتصاعد كالبخار من التراب. وهو كأنه ليس هو. بينما بيوت قرطبة والرصافة والربض، وقناطر القصور وأبراج الأسوار، تبتعد وتغيب وراء ظهره، تسلل إليه ـ كأن من الهواء الذي يزداد خفّةً كلها تقدم في الطريق المحاذية لنهر الوادي الكبير ـ شعورٌ بالانشراح لم يعرفه منذ أمدٍ بعيد.

كان على الطريق من جديد. أغمض عينيه وترك الفرس تقوده. الفرس تعرف الدرب. الفرس لن تضيع.

نسي كل شيء. نسي من أين يأتي. نسي إلى أين يذهب. ونسي من يكون.

[41]

كان ترك صديقه، العشّاب أبو يوسف، مريضاً في البيت فوق الصيدلية، لكن ليس وحيداً.

في نصف الشتاء، ذات صباح شديد البرد، خرج الشيخ القرطبي يحمل كيس دنانير. كان الثلج يغطي مياه النافورة، ورأس التمثال، والذراع التي تمتد حاملة المفتاح الأسود. لم يرجع حتى العصر. عند المغيب دخل ورقع الثلج على كتفيه وعمامته. خلفه سارت جارية بلغارية، مخفية في ظل جسمه الضخم، مثل فطر ينمو في ظلال زيتونة. كانت تلتف بأثواب قاتمة اللون، وعلى وجهها برقع من الأطلس بلون الزمرد.

أسكنها الشيخ جانباً من الدار مفصولاً عن القبة الحمراء بممر هلالي الشكل غير مستقيم، يغطيه سجاد أصفهاني.

كانت الثلوج تتساقط كل يوم. وكان محمد يغادر الدار كل يوم، فيهبط إلى الصيدلية، ويقضي فيها وقتاً من النهار. يَصْفَرُّ الفضاء في الخارج ولا ينزل الشيخ إلى الصيدلية. عندئذٍ يغادر

محمد المكان قاصداً المسجد الجامع، أو إحدى الزوايا الكثيرة في المدينة.

يترك المداس عند العتبة. يتوضأ، ويفترش سجادة في زاوية. بين الصلاة، وتلاوة القرآن، يحلّ المساء. ينعس مسنداً جنبه إلى الحائط، أو إلى عمود قنطرة. قناطر لا تحصى، وعواميد رخام. يتأمل النقوش في خشب المحراب طويلاً. يغمض عينيه فيرى النقوش تحت جفنيه. دوائر تخرج من دوائر. كأيام تتبع أياماً. ورقة عنب تتفرع الخيوط منها. مربعات ومثلثات تتداخل. رخام أبيض وأسود. خطوط كحل في قبب العقد.

عثر على زاوية في طرف المدينة، تظل خالية في معظم أوقات النهار. كان يقعد هناك، تحت نافذة مربعة، يسقط النور منها، على ضريح يكسوه قماش قديم. يقعد في العتمة، ومستطيل النور الشتائي ينحدر فوق رأسه، وينير جانباً من الضريح، ومن طرف طراحته.

يحدق إلى الثقوب في طبقات القماش. يحدق إلى الخيوط المنسلة من النسيج. ويحدق إلى مستطيل النور يتحول مربعاً ثم يصير خطاً ثم يقصر الخط حتى يتحول نقطة ثم... تتلاشى نقطة النور.

عجوز تغطي وجهه الندبات والتجاعيد يشعل قنديلاً ويعلقه إلى الحائط. ينهض محمد. يلقي السلام ويغادر، عائداً في أزقة الليل الشتائي المبكر، إلى بيت الشيخ القرطبي.

بات الشيخ لا يتعشى معه إلاّ نادراً. يقضي لياليه في الجانب الآخر من الدار. نقل «طائر النار» إلى هناك. وطلب من عبيده الصغار، أن يذبحوا كل ديوك القن، لأنها تصيح باكراً في الصباح.

بينما الثلوج تذوب، وقع مريضاً.

[42]

عصر اليوم الثاني أشرف على خيم مضروبة وسط السهل. رأى جنوداً يمشون بين الخيم، وأحصنة ترعى عند ضفة النهر، ونيراناً في طرف المعسكر علقت فوقها قدورٌ يتصاعد منها البخار.

انحدر بين أشجار صنوبر وأرز. رأى عرزالاً معلقاً بين شجرتي صنوبر، وفتى نحيلاً كالقضيب يتسلق جذع إحدى الصنوبرتين بخفة سعدان. التفت الفتى ونظر إليه. تردد لحظة ثم قفز. سقط على الورق الأبري اليابس. وقف واقترب من الفرس.

سأله الفتى مشيراً إلى المعسكر أسفل المنحدر.

ـ أنت معهم؟

قال محمد:

ـ من؟

قال الفتى:

ـ الجنود تحت.

قال محمد:

ـ الآن وصلت إلى هنا.

قال الفتى:

ـ أنا أعرفك. رأيتك في هذه التلال من قبل.

ترجل محمد عن الفرس. ربّت على عنقها. أخرج حبّات تين يابسة من جعبة تتدلى خلف السرج. مدّ حفنة في وجه الصبي. سأله:

ـ متى رأيتني في هذه التلال؟

قال الفتى وهو يخطف حفنة التين اليابس:

ـ في الصيف.

قال محمد:

ـ هذا الصيف؟

تراجع الفتى خطوة. أخذ حبّة تين في فمه. حدق إلى وجه محمد، ثم نظر نحو المعسكر، ثم إلى وجه محمد من جديد.

قال الفتى:

ـ أنت لست معهم؟

سأله محمد وهو يربّت على عنق الفرس:

ـ لماذا تخاف منهم؟

غرز الفتى قدمه في التربة الحمراء. أبعد الورق الرفيع

اليابس إلى هذه الجهة وتلك. قال:

ـ يسرقون الأبقار والثيران من القُرى ويذبحونها.

سأله محمد:

ـ سرقوا ماشية أهلك؟

قال الفتى:

ـ لا نملك شيئاً. لا أحد يقدر أن يسرقنا.

ابتسم محمد. مرّر أصابعه في لحيته. قال:

ـ قلت أنك رأيتني هذا الصيف. أين كنت ذاهباً؟ في أي اتجاه؟ تذكر؟

قال الفتى:

ـ كنت تتجول في التلال. تصيد الطيور. وتجمع الفطر والجذور. ألم ترني أتبعك؟

قال محمد:

ـ بلى، رأيتك بطرف عيني.

دفع الفتى ما بقي من حفنة التين في ثيابه. قذف عوداً يابساً بقدمه. قال:

ـ كنت أعرف. عرفت أنك رأيتني. لكنني خفت أن أقترب. لم تكن هكذا.

ابتسم محمد. قال:

ـ كيف كنت؟

قال الفتى:

ـ كان وجهك مظلماً.

تلاشى الضوء الأحمر رويداً رويداً. رفع الفتى رأسه ونظر إلى السماء عبر أغصان الصنوبر. كان مداسه تلطخ بالوحل. قال:

ـ عليكم السَّلام.

وانحدر راكضاً. دار حول شجرة أرز ضخمة واختفى بين الأدغال عند السفح.

همهمت الفرس. لفح بخار أنفاسها وجه محمد. قال هامساً:

ـ كان هنا.

[43]

ربط الفرس، وفكّ سيور جزمته، وتمدد على الأرض. مضغ قطعة لحم مقدد، وتفرج على نيران المعسكر أسفل الهضبة. أضواء المشاعل انعكست فوق صفحة النهر. كان الهدير صاخباً. منابع الوادي الكبير لا تبعد أكثر من فرسخين.

خيم الليل على الغابات والسهول والجبال والوديان. التمعت النجوم في السماء.

كان جسمه يتمدد منحدراً مع الأرض. لمس ذراعيه. لمس صدره وبطنه. لمس ساقيه. غطت غيومٌ السماء. عتمة دامسة. انطفأت النيران في أنحاء المعسكر. بعض المشاعل توهج عند الطرفين. تلمس ذقنه. لحيته. عضلات الفكين. تلمس عينيه وصدغه والجبهة وعظمات الجمجمة. رفع كفّه وباعد بين أصابعه. كانت الظلمة حالكة. لم يرَ أصابعه. وحدها عين الفرس لمعت في الظلام.

[44]

خلال سبعة أيام قطع منابع الوادي الكبير، وولج منطقة المستنقعات. منطقة مراعٍ تربى فيها الثيران، وتغطيها زراعات أرزّ وحبوب وقصب سكر وشمندر. كانت الحشرات تتكاثف حوله وحول الفرس في سحابات ذات طنين.

فتش عن أعشاب طاردة للحشرات، فلم يعثر على صنفٍ واحدٍ منها. كان عليه أن يملأ جعبته دوقساً خلال مروره بالقُرى الكثيرة شمال مدينة جيّان. لم يفعل. والآن يدفع الثمن.

كان تقدمه بطيئاً. يترجل ويمشي ولا يركب إلاّ ساعتين ـ أو حتى ساعة ـ في النهار. دبره يؤلمه من الركوب المتواصل طوال نهارات وليالٍ، وحوافر الفرس تغوص في أرض سبخة، والذباب يئز حول وجهه ويغط على لحيته وفي أذنيه.

أنهكه عبور المستنقعات. حين قوي تيار الجداول التي تخترق السهول أدرك أنه يقترب من نهر سفورة، وأنه بلغ أطراف هذا العذاب الذي خنق الهواء في صدره، وامتص الدم من جسم الفرس.

الفرس صهلت حين بلغت النهر. غاصت في الماء. غرزت حوافرها في الوحل وتجمدت تحت أشعة الشمس. تخبط الفضاء بذيلها، والرذاذ يتطاير حولها. بانت أقواس قزح صغيرة فوق ذيلها ورأسها. عيناها اتسعتا. نزل في النهر، وعقص عنقها، وفرك جلدها بحزمة شمار قطفها من جانب النهر. تطاير زهر الشمار الأصفر في الهواء. غطس كلّه في النهر. أغمض عينيه وترك الماء يهدر في أذنيه. حين فتح عينيه رأى سائلاً أحمر يمتزج بالماء حول قوائم الفرس. أدمتها الحشرات.

دقّ طيوناً أخضر على صخرة. أخرج الفرس من النهر وفرك قوائمها بالعجينة الخضراء. كانت تصهل كلما لامس جروحها البليلة. انتبه أن الحشرات أدمت ذراعيه أيضاً.

[45]

بعد نهر سفورة ببضعة فراسخ، دخل أرضاً كأنها الفردوس. بحار بيضاء عطرة من بساتين البرتقال المزهرة. تنفست الأرض فتموجت البساتين الثلجية بلون أصفر واهن تبدل إلى البرتقالي عند الغروب. صاد أرنباً برميةٍ من خنجره. شواه على نار حطب الليمون. رشّ عليه ورقاً من نبتة إكليل الجبل. أكله مع جرعات ماء باردة من جدول يعبر قرب قدميه.

بعد البحر الأبيض العطر، في ضوء النجوم، اخترق حقوق خزامى تمتد في الجهات الأربع، وتلوح في أطرافها أنوار قُرى غارقة في الصمت، شبحية الملامح، مثل مخلوقات خُرافية.

بعد أيام نام ليلة في مدينة شاطبة. في الصباح تفرج على دكان يبيع الورق والقراطيس. تلك الليلة بلغ ضفة نهر خوكار، ومع طلوع الضوء عَبَر بفرسه إلى بلاد الفرنجة. على الضفة الأخرى أحاط به فرسان مسلحون.

كانوا سبعة، بدروع فضية، وخوذ تخفي وجوههم. اقتربوا برماح تلمع الشمس على شفراتها. ألقى عليهم السَّلام.

اخترقوا فرسه بالنصال. تمزق اللحم. تمزق العضل. تمزقت الأوتار. انبثق الدم في نوافيرٍ، من الجلد المدهون بعجينة الطيون والحبق والنعناع، وتكسر في وشيشٍ على الأحجار.

صهلت الفرس صهيلاً لم يسمع مثله من قبل. انتصبت على قائمتيها الخلفيتين. ثم سقطت على الوحل.

[46]

سمع طرطقة دروع وخوذ وتروس. كانوا يصرخون فوق رأسه الغارق في الوحل والدم. شمس قاسية على جفنيه. ويتحدثون. فهم الكلمات الإسبانية ولم يفهمها. فهم أن عليهم قطع رأسه. فهم أنهم يبغون قطع رأسه. لم يفهم لماذا لا يقطعون رأسه وينتهون من الأمر. كانوا يتجادلون وسمع حديداً يضرب حديداً. فهم الكلمات الإسبانية ولم يفهمها. فهم أن أحد الفرسان يعترض على قطع رأسه لأنه يعتقد أنه رآه من قبل في أسواق بلنسية، قرب كنيسة القديس يوسف، خارجاً من قداس الأحد أو ماشياً في زياح «خميس الجسد». فهم أن الفارس غير متأكد أين رآه من قبل في بلنسية وفي أي مناسبة. لم يفهم كيف يكون رآه وهو لم يدخل هذه المدينة، بلنسية، من قبل.

فهم الكلمات التي تطنّ ثقيلة فوق رأسه. ولم يفهمها. ثم هوى في ظلمات باردة كسَّرت عظامه، ورمته مشطوراً نصفين فوق أرضٍ حجر.

[47]

استيقظ بعد دهرٍ. سنوات لا تُحصى مرّت على هذا الجسم النائم، همس صوتٌ في أعماقه.

رفع رأسه عن أرض قاسية. رأى في ضوء لامع متكسر أنه ما زال حياً. لم يمت. ضربة سيف مائلة شطرت وجهه، مزقت الخد الأيمن من الأذن إلى أسفل الفك. لكنه لم يمت.

ما زال حياً. قبل أن يفتح عينيه، سابحاً في ظلمات غريبة. الهدير، خيّل إليه أن جسمه يتقطع، كأنه يُسلق في قدر ماء ساخن. خيِّل إليه أنه فزاعة تتساقط أطرافها وسط الحقول اليابسة. ثم مرّت سنين على الجسم النائم، وفتح عينيه.

وجد أطرافه على الأرض الحجر، هنا، أمام عينيه، مبعثرة ومتباعدة، ولكن متصلة بجذعه، لم تسقط عنه.

رفع رأسه عن أرض قاسية. رأى نوراً مملوءاً بذرات الغبار يهطل من نافذة عالية. ثم رجع ذلك الهدير الغريب. رجع من دون الظلمات. هدير غامض، كالشلال لكنه ليس شلالاً، كنهر

تعترض مجراه صخور، لكنه ليس نهراً. هدير لم يسمع مثله من قبل.

وشمّ الرائحة. رائحة طاغية تدخل مع نور السماء وتفوح من الحيطان والأرض. وسمع أصوات طيور. هذه أيضاً لم يسمع مثلها من قبل.

شدّ ساقيه إليه، وأسند ظهره إلى الحائط. عندئذٍ فقط رأى رجلاً يحدق إليه من الزاوية البعيدة. تبادلا النظرات من دون كلمة واحدة، من دون إيماءة واحدة. وجه الرجل كان حليقاً، ورأسه أيضاً. كان رأسه كتلة لحم. وكل ما في وجهه دقيق ويشبه وجوه الأطفال. عينان صغيرتان وأنف صغير وفم صغير. كان يتكوم في الزاوية، ركبتاه مرفوعتان إلى ذقنه، وذراعاه تحيطان بساقيه. ظهره ملتصق بالحائط، وكذلك قفا رأسه. حين فتح فمه لم يتكلم. بلع ريقه ورسم ما يشبه ابتسامة على شفتيه.

مربع النور الأبيض بينهما. الهدير الغريب يتواصل. والمكان غارق في الصمت.

قال محمد:

ـ ما هذا الصوت؟

قال الرجل:

ـ البحر.

[48]

ضايقه الهواء. عقص خديه. لمس وجهه. اكتشف أن ذقنه حُلِقت. لم تلمس شفرة وجهه منذ نبت زغبٌ فوق شفته. تحسست أصابعه وجهه. لم يعرف وجهه. كأنه ليس هو. كأنه أضاع وجهه.

مرَّر أصابعه على جرحه. كان شقاً رفيعاً. تفتتت قشرة الدم اليابسة نثاراً على رؤوس أنامله. أغمض عينيه. فتح فمه وأطبقه. لم يؤلمه الجرح. أحسّ فقط بحكاك خفيف، مثل الخدر. مثل نملة تزحف على خده.

ارتفع صوت الطيور الغريبة في الفضاء.

قال محمد فاتحاً عينيه:

ـ ما هذا الصوت؟

قال الرجل:

ـ نوارس.

قال محمد:

ـ ماذا؟

قال الرجل:

ـ طيور البحر.

[49]

قال الرجل:

ـ أين حدثت المعركة؟

قال محمد:

ـ لم أكن في معركة. قطعت النهر فقط. خوكار.

قال الرجل:

ـ لماذا قطعته؟

قال محمد:

ـ جئت أبحث عن أخي.

قال الرجل، وهو يمدّ رأسه كعصفور إلى الأمام:

ـ لماذا؟

قال محمد:

ـ قبل ثماني سنوات تركت بيتنا في غرناطة مع أخي. ذهبنا نَرَعَى الخِراف. ضاع خروفٌ فدخل أخي الغابة يبحث عنه ولم

يرجع. رجعت إلى البيت من دونه. هذا الصيف سمعت أنه يعيش هنا، في بلنسية. تركت البيت في غرناطة وأقسمت لا أرجع إليه هذه المرة إلاّ وأخي معي.

[50]

قال الرجل:

ـ ماذا يُدعى أخوك؟ لماذا يعيش في بلنسية؟ كيف وصل إلى هنا؟ هل تعرف أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ هل عنده تجارة؟ بيت؟ عائلة؟

قال محمد:

ـ كل ما أعرفه أنه يتاجر بالقرمز والأعشاب الطبية. يأخذ الأعشاب التي يجمعها إلى مدن وراء النهر ويبيعها للعشابين أو يبادلها بالقرمز. ربما يحمل القرمز ويبيعه هنا، في بلنسية. لا أعرف ماذا يسمي نفسه هنا. في غرناطة كان يُدعى الربيع. العشّاب القرطبي الذي أخبرني عنه قال إنهم يسمونه «البلنسي» في قرطبة.

قال الرجل:

ـ لم أفهم. من هذا العشّاب القرطبي؟ لماذا يعرف أخاك؟ وكيف يعرفك؟

قال محمد:

ـ دخل إلى دكان أعمل فيه. دكان في غرناطة. رآني فحسب أنني البلنسي الذي يبيعه الأعشاب الطبية. تحدثت معه. أخبرته أن أخي ضاع في غابات غرناطة. كان في الثالثة عشرة. كنت في الحادية عشرة. دخل إلى غابة يبحث عن خروف ضاع بسببي. دخل يبحث عن خروف فضاع. سمع العشّاب القرطبي حكايتي وطلب مني أن أزوره حين يبدأ الخريف. قال إن البلنسي يزوره كل سنة في زمان سقوط القرمز على شجر البلوط. فعلت ذلك. زرته مطلع الخريف.

قال الرجل:

ـ ولم يأتِ البلنسي.

قال محمد:

ـ انتظرت الخريف، وانتظرت الشتاء، ثم قررت أن أجيء إلى هنا. أسأل عنه وأعرف أين هو وأراه.

قال الرجل:

ـ العشّاب القرطبي حسب أنك هو، حسب أنك البلنسي، قلت؟ هل تشبه أخاك إلى هذا الحد؟

قال محمد:

ـ العشّاب القرطبي قال إنني أشبهه كأنني هو. الوجه ذاته.

قال الرجل:

ـ ويعيش في بلنسية. ويتاجر بالأعشاب الطبية والقرمز. ويشبهك كأنه أنت.

هزّ محمد رأسه.

قال الرجل:

ـ وقبل ثماني سنوات ضاع في غابات غرناطة؟

هزّ محمد رأسه.

قال الرجل:

ـ وكل هذه السنين، ولم يرجع إلى مدينته وأهله؟ لماذا يفعل ذلك؟

[51]

قال الرجل:

ـ جائع؟

قال محمد:

ـ جائع وعطشان.

قام الرجل واقفاً. لاحظ محمد أن ذراعه اليسرى تتدلى ميتة إلى جانبه. تقدم الرجل خطوتين. كان الآن وسط بقعة النور الأبيض. قال:

ـ اسمي ميغيل آنخيل. نتحدث بعد أن ترتاح.

استدار ومشى حتى البوابة. قرع الخشب مرتين. تحركت البوابة. خرج وأغلقها وراءه.

بعد قليل دخل رجل يحمل صينية طعام وإبريق فخار.

لم ينظر إلى محمد. وضع الطعام والماء على الأرض وخرج. انغلقت البوابة.

[52]

رجع ميغيل آنخيل في صباحات الأيام التالية. كل مرة يأتي مع أسئلة جديدة.

وفي كل مرة كان محمد يكرر سرد حكايته، ويجيبُ عن أسئلة الإسباني. حتى وجد نفسه يحكي معظم ما حدث في حياته، منذ كان ولداً يلعب مع أخيه وحتى هذه اللحظة.

قال ميغيل آنخيل:

ـ من يعرف أخاك في بلنسية؟ من يمكن أن يعرفه؟ العشّابون والدباغون. تقول إنك تشبهه. هذه بداية الطريق.

في الأيام التالية جلب ميغيل آنخيل، عشّابين ودبّاغين، لرؤية محمد. لم يعرفه أحد. لم يتذكر أحد رؤية وجهه، أو رؤية وجه يشبه وجهه، من قبل. حتى ذلك الفارس الذي خلّصه من قطع الرأس، احتار وقال إنه أخطأ، حين رآه من جديد.

قال محمد:

ـ لكن ذقني حليقة الآن. وهناك ندبة على خدي. وجهي لم يعد وجهي. لهذا لا يعرفني أحد.

[53]

قال ميغيل آنخيل:

ـ إذا كان أخوك لم يرجع إلى البيت، فهذا يعني أنه لا يريد أن يرجع إلى البيت.

قال محمد:

ـ لن أعرف هذا يقيناً إلاّ حين أراه.

قال ميغيل آنخيل:

ـ وكيف تعرف أنك ستعثر عليه؟

قال محمد:

ـ أتوكل على اللّه.

قال ميغيل آنخيل:

ـ فجراً تغادر سفينة مدينتنا إلى جنوى. أستطيع أن أضعك عليها. هذه فرصتك للخروج من هنا. تشتغل على السفينة.

قال محمد:

ـ وأخي؟

قال ميغيل آنخيل:

ـ ماذا تقولون. . . «العلم عند اللّه».

[54]

تمدد على الأرض القاسية.

الموج يهدر في الأسفل، يخبط أساسات القلعة، يتسرب إلى الحيطان، ويتردد في ثقبيّ أذنيه.

رأى قمراً أبيض مكتملاً يتسلق القبة السوداء، تقطعه قضبان النافذة، تقبض على نصف استدارته، ثم يفرّ منها.

تدفق النور عارماً، غمر ساقيه.

كان يتذكر الكلمات الأخيرة للرجل الإسباني ميغيل آنخيل قبل أن يغادره هذا المساء، ويقفل البوابة.

يتذكر الكلمات والصوت الهادئ ويحسّ قبضة تعصر قلبه وتملأ قصبته بالتراب.

قال له الإسباني:

ـ خطيئتك أنك لا تعرف متى أخطأت. سمعت كل حكايتك. مرة تلو المرة. وأعرف الآن أنك لا تعرف. أنت لم تخطئ حين غفوت بينما تراقب الخِراف ذلك العصر. أنت لم

تخطئ حين ضاعت الخِراف. أنت لم تخطئ حين سمحت لأخيك بدخول الغابة وحيداً. تعرف متى أخطأت؟ أخطأت حين لم تشعل ناراً تدلّه إلى الطريق. ماذا ينفعه أن تصرخ وتنادي وهو يضيع في الغابة والليل هبط؟ الصوت لن يدلّه. الأشجار تقذف الصوت في كل الاتجاهات. لماذا لم تشعل ناراً يستدل بها؟ لو فعلت كنت أنقذته. لو أشعلت تلك النار الصغيرة كان خرج إليك. لو فعلت كنت رجعت إلى البيت معه، في ذلك الليل، ولما ضاع أبداً. ولِما ضعت أنت. قبل ثماني سنوات كان عليك أن تشعل ناراً عند حافة غابة. لو فعلت ما كنت مرمياً كالعبيد هنا. لحظة حُمقٍ واحدة أفسدت كل حياتك.

حدّق محمد إلى وجه الإسباني.

لم يفهم لماذا يقول كل هذه الكلمات.

نهض الإسباني ومشى إلى البوابة.

قال وهو يختفي خارجاً:

ـ التجذيف في سفينة أجدى لك من الضياع في دروب بلنسية شريداً تبحث عن قرين لن تعثر عليه. رجال بلنسية جميعاً غادروها. كلهم في الحرب. نصفهم يحارب هنا، عند الضفاف، على بُعد رمية سهم، والنصف الآخر لا تراه عين. يحاربون في البعيد البعيد. عساكرنا بلغت الأراضي المقدسة. النبلاء الفرنسيون يزحفون على القدس. لن تجد رجلاً في هذه المدينة. لا. التجذيف أنفع.

نظر الإسباني صوب النافذة.

نظر إلى محمد الملقى على الأرض.

واختفى وراء البوابة.

بعد ذلك لن يراه محمد إلاً في المنام.

[55]

اقتادوه في الهزيع الأخير من الليل، عبر دهاليزٍ وسلالم حجرية، إلى فناء مضاء بمشاعل القطران تحيطه أسوار عالية.

ربطوه بسلاسل حديد إلى صف عبيد وأسرى. كان الحديد ثقيلاً حول معصميه وكاحليه، وتعثر وكاد يسقط على وجهه، وعلى الرمل الأصفر كالتبر.

نظر إلى السور الدائري الذي يلفّ الفناء. كان عالياً تسقفه سماء يغادرها ضياء القمر. لهب المشاعل انعكس على حجارة الحيطان الضخمة. برقت الأسوار كالنحاس.

فرقع سوط فوق رأسه. ارتجف الهواء عند أذنيه. ثم سمع صرخة، ورأى خطاً بلون القرمز يشق ظهر العبد أمامه. خط بعرض أصبع يشطر الجلد الأسود من القذال إلى فوق الكلية اليمنى. انحنى العبد ثم استقام.

تحرك الصف الطويل بطيئاً بطيئاً إلى خارج القلعة.

في ضوء الفجر الخفيف عبروا أرضاً محروثة صفراء التربة، تتبعثر فيها حصى مفلطحة بلون العنّاب البرّي.

رعاة صغار عراة الجذوع نظروا إليهم من حافة الحقول. كانت الأغنام تتحرك حول جذوعهم العارية، قاتمة في ضوء الفجر، كأنها حيوان واحد هائل الحجم، برؤوس كثيرة لا تُحصى.

انحدروا في طريق متعرجة، وكانوا يتعثرون ويتوازنون. السلاسل تقرقع، والسياط تفرقع، والصرخات تشق الفضاء.

قطعوا كروم عنب مرفوعة على عواميد.

حين خرجوا منها انبسط الشاطئ أمام أقدامهم، وبعد الشاطئ بحر بلا نهاية.

كان أبيض كاللبن في ضوء الصباح.

ورأى محمد سفينة كبيرة كحصن، مفتوحة الجانب، بجسرٍ من ألواح الخشب يمتد بينها وبين شاطئ كست الطحالب حجارته.

[56]

جلد باطن كفيّه يتمزق، الشمس تضرب رأسه، رائحة العرق تغمر الفضاء، عضلات كتفيه وظهره تتصلب وتقسو كالحجارة، وأذناه تألفان فرقعة السياط.

خلفه وأمامه لهاث. خبطات المجاذيف الموقعة، ورذاذ الماء المالح يدخل من الكوّات في الخشب، والمجذاف يزلق من الرباط الجلدي ثم يسقط في مكانه من الكوّة، وتنتظم حركته من جديد.

العرق يسيل على رموشه، يدخل في عينيه، يقطر في لحيته التي تنمو يوماً بعد يوم وتطول، يخطّها بياض الملح والبحر والشمس، ولحم السمك المقدد، الجاف كالحطب، تُرمى إليهم قطعة منه مرة واحدة كل ظهيرة. يلوكها الواحد بينما يجذف.

في الليل يجرّونهم، مثقلي الأقدام بالسلاسل، إلى قعر السفينة. يهبطون سلماً نصف درجاته مفقود. يتدحرجون في الظلام، ويرتطمون ببراميل فارغة، وبعوارض خشب ناتئة من الأرض.

يسقطون معاً في نومٍ عميق.

[57]

بينما يجذف، كان يحدق إلى الجلد الأسود قدّام عينيه، تلمع الشمس على عرقه وندباته.

لا يرى غير هذا المنظر طوال النهار. ينحني أحياناً، حين يبتعد صاحب السوط، ويسترق نظرة عبر كوّة المجذاف.

لا شيء. البحر فقط. يترامى حتى الأفق. أزرق وأبيض يتموج من دون لحظة راحة.

مرة واحدة فقط، بعد أيام لا يقدر أن يحصيها، رأى في نور ما بعد الظهيرة، جزيرة تعلو مثل هضبة كاملة وترتفع ببيوت بيضاء، فوق وجه البحر. كان البحر ساكناً كأنه صحن زجاج أزرق. بدت البيوت معلقة فوق بعضها بعضاً، وهي تتدرج صعوداً من سفح الجزيرة إلى قمتها. رأى الجزيرة، مثل مثلث أبيض من البيوت، ترتفع فوق الصفحة الزرقاء، ورأى أيضاً صورة الجزيرة بجميع بيوتها المعلقة، منعكسة تحت صفحة البحر.

[58]

قبل جزيرة سردينيا، في صباحٍ من ضباب كثيف غطى البحر وارتفع فوق جوانب السفينة فغمر الصواري وزحف كثعبان بين صفّي المجاذيف والعبيد، أطبقت ثلاث سفن من سفن البربر، على السفينة الإسبانية.

أعلامهم الخضراء تموجت تقص الضباب الأبيض وتخفق وسط الصراخ. مطر نبالٍ انهمر فوق السفينة الإسبانية. الإسبان صرخوا رعباً وهم يرفعون التروس فوق رؤوسهم. العبيد والأسرى صرخوا فرحاً وهم يلتصقون بجانبي السفينة وينظرون عبر الكوى إلى السفن المقتربة.

البربر الملثمون قفزوا إلى بطن السفينة الإسبانية كأنهم يسقطون من السماء. حرّروا العبيد والأسرى. كسروا السلاسل بالمطارق والفؤوس. قطعوا أنوف الإسبان وآذانهم. رموا نصفهم في البحر. ونهبوا السفينة.

[59]

الأمير البربري تاشفين، صاحب السفن الثلاث، أمر بتوزيع الطعام والشراب على الأسرى، وسألهم من أي بلاد يأتون.

قال محمد حين وصل الدور إليه:

ـ غرناطة.

سأله الأمير:

ـ في معركة؟

قال محمد:

ـ أنا عشّاب. وكنت أتاجر بالقرمز. قبضوا عليّ عند ضفاف خوكار.

قال الأمير مبعداً لثامه عن فمه:

ـ أخي الأصفر عشّاب. لا أحد في إفريقيا إلاّ ويعرفه. سبعة أيام ثم نجلس معاً جميعاً ونرى من يعرف الأعشاب أكثر بينكما. اشربْ! اشربْ! في هذا الحرّ الشمس تقتل.

ودفع إليه إبريق ماء.

[60]

أقام محمد في سبتة في المغرب سنة ونيف. عمل في دكان العشّاب البربري، وعاش في دارٍ فسيحة تحاذي داره.

كانت داراً تبعد من المرسى رمية حجر. في الأيام الرائقة الجو، كان يستطيع، إذا صعد إلى قبّة السطح، أن يرى جزيرة الأندلس، خضراء، في الجانب الآخر من مضيق جبل طارق.

قبيل آذان العشاء كان يتمشى في أنحاء المدينة ـ الضاربة في البحر مثل كفّ عملاقة تمتد وسط الماء ـ ويتأمل المراكب تدخل المرسى أو تغادره.

هنا، في سبتة، على برّ البربر الذي يقابل الأندلس، سمّوه: «الغرناطي».

[61]

ديار الأمير البربري، وأخيه العشّاب، كانت تعجّ بالنساء والصبيان والبنات.

ذات ليلة، بعد صلاة العشاء، قالا له:

ـ تتزوج أختاً من أخواتنا؟

قال محمد:

ـ اسمعا حكايتي أولاً.

وحكى لهما حكاية أخيه الربيع، وكيف ضاع، وكيف سمع بخبره، وكيف ذهب يبحث عنه، ثم حدث ما حدث، ووجد نفسه يجذف في سفينة والحديد في يديه... والباقي تعرفانه.

صمتا. كانت نار صغيرة تشتعل في جانب من الفناء. تمايلت سعف النخل، وأصدرت موسيقى تشبه عزف القصب.

قال محمد:

ـ تركت أبي مفلوجاً، وأمي تنتظرني. أقسمت لا أعود إلى غرناطة من دون أخي. الآن، ماذا أعمل؟ كيف أرجع؟ لا أستطيع.

تكلم الأمير، رجل البحر:

ـ كيف تعلم أنه لم يمت؟ كيف تعلم أن هذا البلنسي الذي يشبهك هو أخوك؟ يخلق اللّه من الشبه أربعين.

قال العشّاب، رجل الأرض ونبات الأرض:

ـ أنت أخونا يا محمد. منذ سنة تعيش بيننا. لم نرَ منك إلاَّ الخير والأمر الحسن. تتزوج من أخواتنا وتعيش كما نعيش. ماذا تقول؟

[62]

حمل بزر كرفس بخمسة دراهم في كيسٍ، ومضى لزيارة إمام الجامع، صديقه، ابن مرانة الخطيب.

تصادقا بعد أيام من نزول محمد (الغرناطي) في سبتة.

الشيخ ابن مرانة كان رجلاً ضخماً لم يبلغ الخمسين ذكّر محمد بصديقه أبي يوسف القرطبي. وكان يشكو علّةً، تزيدها قوة المجامعة، وقواه الشهوانية، استفحالاً.

كان مصاباً بالقولنج. ويدبر نفسه بحقنٍ من بزر الكرفس. كان يحقن نفسه أحياناً ثماني مرات في يوم واحد.

قال له محمد:

ـ تتقرح أمعاؤك إذا تابعت على هذا المنوال.

ضحك الشيخ:

ـ أتيت من غرناطة إلى سبتة كي تلفظ هذه الحكمة في وجهي؟

أخبره محمد بالحديث الذي دار بينه والأخوين.

قال الشيخ:

ـ البربريات بدعة. ما تردُدك؟

قال محمد:

ـ كنت عبداً في سفينة فرنجة. أخاف أن أصير عبداً في دار بربر.

قال الشيخ:

ـ ماذا تفكر؟

قال محمد:

ـ تجارٌ من تونس يترددون على الدكان قالوا لي إنه ليس في مدينتهم عشّابٌ واحد.

قال الشيخ:

ـ وتترك صاحبك وحيداً مع القولنج والسجح؟ اذهبْ يرعاك اللَّه.

ضحك محمد. وضع الشيخ يداً على ركبته. قال:

ـ اذهبْ. لا تكن عبداً لأحد أبداً.

[63]

غادر سبتة في الخريف ميمماً شطر تطوان. على بغلة عالية، ممشوقة القوائم ثلجية البياض، معلقاً في الفضاء، على رحالٍ ملبس بالديباج، ونسائم بحر الروم تبلل وجهه، أحسّ نفسه يغادر جسمه.

البحر يظهر ويغيب، والنوارس تخفق فوق اللجّة والشاطئ. رائحة بلح تتصاعد من التراب. تغزل خيوطاً في الهواء وتعلو حتى سعف النخل. وهو كأنه ليس هو. بينما بيوت سبتة، ومنارة مرساها، ومئذنة جامعها، تبتعد وتختفي وراء ظهره، تسلل إليه ـ كأن من الهواء الذي يزداد خفّة كلما تقدم في الطريق المبلّلة بالمطر ـ شعورٌ بالانشراح لم يعرفه منذ أمدٍ بعيد.

أصوات تغادر رأسه. ملامح ووجوه. غرف ورفوف وحيطان. أو أنه هو يغادر كل ذلك. أغمض عينيه وترك البغلة تقود الطريق.

لم يفكر في شيء. لم يكن يفكر في شيء. كان على

الطريق مرة أخرى. على دروبٍ تأخذه إلى أرض لم يعرفها من قبل. سماء زرقاء، ونخيل يميل في الهواء، ورمال تظهر كالتبر من بعيد. نسي من هو. نسي من يكون. نسي من أين يأتي.

عبرت غيمة بيضاء السماء ثم تفتتت وتناثرت كالقطن. بدّدتها الرياح في الجهات الأربع.

فتح عينيه، وأغمضهما، ثم فتحهما من جديد. كان ينعس متهادياً على البغلة. رأى طيوراً لا يعرف أسماءها، وشجر صبارٍ تتوهج ثماره بسائلٍ ينقط على كفوف جذوعه الشائكة. كان يبتعد ويبتعد ويبتعد. ولم يفكر إلى أين يمضي.

لم يكن أحداً.

كان خارج جسمه.

شارداً في الصحراء.

الراكب على المطية ليس هو الرجل الذي كان في سبتة قبل قليل.

[64]

كانت هذه حياته. الحياة التي صارت حياته. يغادر مدينة فيحسّ أنه يغادر جسمه. يطير مع الطلع في فضاء لا محدود، حتى يبلغ مدينة أخرى. يترجل عن مطيته. يجد لنفسه شغلاً وبيتاً. يعمل عشّاباً أو ورّاقاً، راعي إبل أو خِراف. في سهل زيتون خارج القيروان عمل ناطوراً طوال صيف وخريف وشتاء.

حين يسافر في الصحاري، يلجأ إلى المغاور نهاراً. يتفرج على رسوم قديمة على الحيطان. ثيران مدببة الظهور. آدمي يسبح وسط الرمال. خطوط وأقواس ودوائر. في الليل، بعد غياب الشمس، يسري. يتهادى فوق جمل. سفينة الصحراء.

عظام على الرمال، تلمع كأنها مغسولة بالمطر. يصقلها الرمل. تصقلها الريح، وشعاع شمس لا يرحم. خطاه وآثار الحوافر تتبدد من ورائه. لا يبقى إلاّ بحر الرمال يمتد في كثبانٍ لا نهائية، تحت أنوار النجوم.

[65]

عند العصر، بينما يفكّ صرّة طعام في ظلال نخلة، أو يشعل ناراً كي يغلي نعناعاً يابساً أو عشبة برية، كان يتذكر وجوهاً وأصواتاً وحكايات.

قبل سنين، في سبتة، في دكان عشّاب بربري، رأى وجهاً لا يُنسى. كان وجهاً محروقاً بالشمس والملح، قديماً ومصقولاً كقطعة رخام. الصوت الذي خرج من الفم كان أيضاً لا ينسى. صوت عميق كأنه يصعد من بئرٍ بلا قرار. خافت ويقبض القلب.

كان رجلاً من بيت المقدس، شهد في ذلك الصيف، صيف 1099، وقوع المدينة في يد الفرنجة. خرج منها هائماً على وجهه. يضيع في الصحراء متوغلاً بين كثبان تتكرر أشكالها، كأنها كثيب واحد يتعدد من حوله.

الرجل المصقول الوجه، صاحب الصوت الغارق في أعماقه، لم يخبر محمد ما كان يسمعه من أخبار في الدكان وفي الأسواق وفي الجامع وفي المرسى. المقدسي نقل إليه حكاية لم يسمع مثلها من قبل.

لم يحكِ عن مسلمين «يفرّون من أبواب صهيون، والنية، والبلاط، وجب أرميا، وسلوان، وأريحا، والعمود، ومحراب داود عليه السَّلام». ولم يقل إن الفرنجة سدّوا أبواب الحديد الثمانية في وجه البشر.

تلك أخبار سمعها محمد الغرناطي من آخرين. من تجارٍ وبحارة وهاربين. أخبار حصار الفرنجة للمدينة، ونصب المجانيق، واحتلال الساحل كله، ثم الاقتحام. «وضعوا السيف في المسلمين أسبوعاً». التجأ الناس إلى الجامع الأقصى، فقتل منهم ما يزيد على سبعين ألفاً. «وأخذ الفرنجة من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً فضة كل واحد وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم فضة وتنور فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي وأموالاً لا تُحصى، وجعلوا الصخرة والمسجد الأقصى مأوى لخنازيرهم». كانوا يسبحون في الدماء وحين بلغوا الصخرة «ركعوا وصلّوا والدم يقطر من أصابعهم».

صاحب الوجه الذي لا يُنسى حكى حكاية أخرى.

قال:

ـ ثمانية عشر رجلاً قبضوا عليهم من الطريق وأودعوهم قبواً عميقاً تحت داري قرب باب العمود. كنتُ في الدار، مختبئاً في علية خشب وراء عناقيد بصل وثوم. طوال النهار أشم رائحة بصل فاسد وثوم في أنفي. وأرى الجنود يهبطون الدرجات إلى القبو ويصعدون. ثم دخل واحد منهم وجلس على عتبة حجرية وسط الدار. عتبة كنت أرتاح عليها كل مساء

حين أعود من الحقول. جلس ونادى بلغة غريبة لا أفهمها. كان نحيلاً، أصفر الشعر، ويرتدي لباساً مغطى بقطع حديد وفضة. لم يكن يحمل سلاحاً. لا سيفاً ولا خنجراً ولا حتى عصاً. ورأيت الجنود يدخلون ويصفّون الأسرى إلى الحائط. كانوا ثمانية عشر رجلاً. أتوا بأولهم إلى الرجل النحيل. لم يترك العتبة. ظلّ قاعداً ومدّ يديه إلى الأمام ووضع كفه اليسرى على رقبة الأسير وأمسك بها. ثم رفع كفه اليمنى وصار يضغط على بلعومه بشدة حتى التقت الأصبع بالإبهام، فجذب البلعوم فانقطع، فوقع الرجل جثة لا حراك فيها. أمر الجند بطرحها خارجاً وإحضار رجل ثان. فاحضروا الثاني والثالث إلى السابع عشر. حتى تكومت الجثث في الخارج أعلى من حافة النافذة. حين أمسكوا الثامن عشر كان أصفر، وساقاه لا تحملان جذعه ورأسه. رفعوه. لكن النحيل صاحب الشعر الأصفر أمرهم أن يتركوه. تركوا الأسير على الأرض. النحيل قال شيئاً وهو ينفض أصابعه في الفضاء. الجنود ضحكوا. بعد ذلك خرجوا جميعاً.

محمد، واقفاً بين مشاكيك ثمار يابسة، وسط نور سبتة النازل من النوافذ، انتظر كي يبلع الرجل ريقه ويمسح فمه بكمّ ثوبه، قبل أن يكمل الحكاية:

ـ نزلتُ من العلية وزحفت على الأرض حتى بلغته. كان ينام على وجهه. قلبته هامساً في أذنه ألا يصدر صوتاً. عيناه كانتا جاحظتين. نظر إليّ، ولم يلفظ كلمة. كان ميتاً.

[66]

بلغ تونس بعد رحلة طويلة. بعد تطوان وضع فراسخ لا تحصى بينه والبحر. توغل داخل المغرب. نام ليلة في فاس. سكن نصف سنة في مكناس. ثم سافر مع قافلة تجار إلى مراكش. صاد الأيائل في جبال الأطلس الكبير، وقطعها إلى الجانب الآخر، ونزل صيفاً لاهب الحرارة في عين الصفراء.

الفصول تتوالى وهو على سفر. أخذته الدروب شمالاً من جديد. قطع الأطلس الصحراوي ثم جبال عمور ثم الهضاب العليا. أقام في كوخ شرق قرية المصران عند ضفة بحيرة ساخنة المياه. من نافذة كوخه كان يسقط الدلاء ثم يرفعها طافحة بالماء للوضوء أو للاغتسال.

نام في شهبونية، في عين وسارا، في سيدي عيسى، في بويرة، في البليدة، في جبل جرجرة، في تيزي وزو، في سطيف، في جبال الحضنة، في عين مليلية، وفي سكيكدة على شط البحر. في هذا اللسان المتوغل في الماء، نام نصف ليلة في برج حصنٍ روماني عشّشت فيه الزرازير.

أيقظه البحر في نصف الليل، وهدير الدم في شريان عنقه. كان مبلّلاً بالعرق، ورائحة الخوف تلتصق بجلده. في المنام رأى أنه ما زال في برج تلك القلعة في بلنسية. في المنام رأى أنه محبوس هناك منذ سنين. الإسباني ميغيل آنخيل خرج ذلك العصر وأقفل البوابة خلفه ثم غادر القلعة ولم يتذكره بعد ذلك أبداً. لم يتذكر أحدٌ الغرناطي الذي قُتلت فرسه عند ضفة خوكار.

بقي الغرناطي وحيداً في برج عالٍ في بلنسية والموج يهدر في ثقبيّ أذنيه.

لم يكمل الليلة في ذلك الحصن. ترك سكيكدة متابعاً رحلته شرقاً في الظلام.

بلغ عنابة بعد يومين على فرس منهكة. باعها بسعر زهيد وأكترى حماراً ركبه إلى طبرقة. رحلة بطيئة لكن مريحة. عثر على قفير نحلٍ فسطا على عسله.

في طبرقة أقام الشتاء، في بيتٍ يطل على البحر. كانت جزيرة جالطة، التي أخبره عنها صديقه أبو يوسف في قرطبة، تظهر وتختفي وسط العواصف. بعد عاصفة دامت ثلاثة أيام أحسّ أن الحيطان تخنقه. استغل تباعد الغيوم في السماء ذات صباح، وانطلق جنوباً.

من باجة مضى إلى تبرسق، إلى قعفور، إلى سليانة، إلى مكثر. قُرى ينزل فيها شهرين أو ثلاثة وقُرى يعبرها من جهة إلى

أخرى في يوم. كان ينام الليالي في البيوت أو الكهوف أو الزرائب أو تحت الشجر. حين بلغ سهول الزيتون خارج القيروان كان منهكاً من السفر.

أقام في القيروان ما يُقارب السنة، ناطوراً على البساتين. بعد ذلك سافر ـ راكباً ثم راجلاً ـ ميمماً شطر الشمال، فبلغ تونس.

دخلها في يوم جمعة. كان الوقت صباحاً. مضى إلى الجامع. كانت أسراب الحمام تملأ السماء.

عثر على تجار من معارفه، آتين لصلاة الظهر. سألوه متى وصل إلى البلد.

قال:

ـ في هذه اللحظة.

سألوه من أين يأتي، من سبتة؟

قال:

ـ من سبتة. لكني غادرتها قبل سنوات.

[67]

ما كان يدري ـ وكيف يدري؟ ـ وهو يحطّ رحاله في يوم الجمعة ذاك البعيد، أنه ينزل في تونس زمناً يزيد عن سبع سنين، فيفتح تجارةً، ويبني داراً، ويتزوج امرأةً تُعطيه ابناً وبنتاً وليالي لا تُحصى من النوم العميق.

[68]

أول نزوله في تونس سكن كوخاً في جوار قبر المؤدب محرز. كان يقوم ليصلي الفجر فيرى النوتية يقبضون التراب من أمام القبر وينحدرون إلى الشاطئ.

عمل بائعاً في دكانٍ أسفل المنحدر شرق الجامع. صاحب الدكان تاجر يعرفه من أيام سبتة، أخبره أن أهل المراكب في بحر تونس ينذرون للمؤدب محرز ويقسمون به إذا جاش البحر عليهم.

ـ وفي العواصف يرمون من تراب قبره في اللجّة، فتسكن.

يقعد في باب الدكان، يُكلم التجار والزبائن، ويبيع اللوز الفريك، رقيق القشرة طيب المضغة حبّته بيضاء كبيرة، والرمان صادق الحلاوة عصيره يكاد يفرّ من قشرته، والأترج الجليل الطيب الذكي الرائحة، والتين الخارمي أسود كبير رقيق القشر يقطر عسلاً ولا يكاد يوجد فيه بزر، والسفرجل كل حبة كرأس أرنب، والعنّاب الرفيع في قدر جوزة، والبصل القلوري جارح الحلاوة، وأصناف توابل تأتي من الجُزر، وأجناس سمك لا

توجد إلاً في تونس، تُباع مكومة في مواعين من سعف النخل، مملحة ومجففة في الشمس، تبقى سنيناً صحيحة الجرم طيبة الطعم، ولا تفسد.

يؤذّن المؤذن لصَّلاة الظهر فيغادر الدكان، ماشياً بين بيوت يلمع حجر الرخام في مداخلها. يرقى إلى الجامع على اثنتي عشرة درجة، ويطلّ على البحر من الباحة المرصوفة بالحجارة. يتوضأ، وينظر إلى بساتين الزيتون والثمار والرياحين، ويرى الغيوم تسبح فوق جبل أم عمرو، تسكن لحظة عند قمة جبل الصيادة، ثم يدفعها الهواء بعيداً.

قرب دكانه، دكان خزف، يبيع كيزان للماء تعرف بالريحيّة، شديدة البياض في غاية الرقّة تكاد تشفّ، وحين تتحرك الريح وتلامسها تصدر موسيقى تملأ جسمه شجناً.

كان يغمض عينيه فيرى نفسه ولداً في بيت أهله في غرناطة. جده سليمان ينفخ في قصبة ثقبها ثقوباً غير نافذة، وأخوه الربيع يصفع وجه البركة بكفّه صفعات خفيفة.

[69]

ابتنى بعد سنة دكاناً في طرف السوق. كانت بضاعته ثماراً مجففة وبعض الرياحين وزيتوناً قيروانياً مكبوساً. لم يكن يُباع زيتون كزيتونه في تونس كلها. ميزة زيتونه لم تكن في حبّة الزيتون نفسها، ولكن في أعشاب يضيفها إلى خليط الزيت وورق الغار وليمون الأبوصفير، أعشاب تحفظ لحبّة الزيتون صلابتها ولمعة قشرتها وقساوة لحمها المرغوبة، حتى ولو ظلّت في الخوابي سنين.

أحد كبار تجار الزيت والزيتون في البلد، الشيخ شهاب الدين أبو عبد اللّه السفاقصي، جاء إلى دكانه بعد أن ذاع صيت زيتونه (كانوا يسمونه: «زيتون الأندلسي») وجلس معه أمام الدكان. شربا جامات ماء الورد، ثم دخل الشيخ في الحديث.

قال:

ـ تشتغل معي؟

قال الغرناطي:

ـ ذلك يشرفني. لكن ماذا أعمل؟

ابتسم الشيخ. أخرج سبحة عنبر من ثيابه. نظر إلى الغرناطي ثم إلى الخوابي في الدكان المعتم خلفه، قال:

ـ أنت تعلم.

قال الغرناطي:

ـ كنت أعمل مع الشيخ. . .

قاطعه الشيخ شهاب الدين السفاقصي:

ـ أعلم أين كنت تعمل. أنا لست هو.

قال الغرناطي:

ـ الآن نتكلم كصديقين. سمعتُك في السوق أطيب سمعة. لكن الشغل يفرّق.

قال الشيخ:

ـ تحبّ أن تكون وحدك.

قال الغرناطي:

ـ أبداً. ليس ذلك ما أريد. أحب أن أكون مع الجماعة. لا إله إلاً اللَّه و. . .

أكمل الشيخ معه:

ـ ومحمد رسول اللَّه.

ردّدا الشهادتين مرة أخرى.

خيم الصمت عليهما.

الشيخ انتبه إلى الحزن في وجه الغرناطي.

رفع ذراعه وربّت على كتفه.

عدّ سبّع حبات عنبر في مسبحته ثم تحدث ناظراً إلى الأرض:

ـ هذه كآبة الغرباء عن ديارهم. ما أبعدك عن دارك يا بنيّ؟

شعرات بيضاء في اللحية الكثيفة ارتجفت في الهواء. طار سرب زرازير من جبل الصيادة. هذه الطيور تجيء إلى هذا الجبل في وقت معلوم من كل سنة. تجذبها مواجل الماء في سفحه، تتجمع في زمن المطر، وتفقس على ضفافها بيوض الهوام حين ترتفع حرارة الجو.

قال الغرناطي:

ـ تريد أن تسمع حكايتي؟

[70]

روى محمد الغرناطي قصة حياته. كيف ضاع أخوه الربيع بينما يبحث في الغابة عن خروف أسود بين قرنيه بقعة بيضاء. كيف أنه ـ هو محمد، ابن الحادية عشرة ـ نادى ونادى ونادى على أخيه الكبير، لكنه نسي أن يشعل ناراً تدلّ أخاه في الليل البهيم. كيف أن الروح تسربت كالماء خارجة من جسم أبيه. كيف أن الصمت حلّ على أمه. كيف أنه وجد السلوى في دكان ورّاقٍ مالقي جاء إلى غرناطة بعد أن قتل البربر أهله في إحدى الغزوات. كيف أنه نسخ الرازي والزهراوي والمسعودي والطبري واليعقوبي طوال سنين. كيف أنه بعد سبع سنوات من فقدان الربيع سمع خبره، أو خبر رجل قد يكون هو، يتاجر بالقرمز وعشب الأمراض بين بلنسية ومدن الأندلس. كيف إنه رحل إلى قرطبة ونزل عند الشيخ أبي يوسف العشّاب. كيف إنه ـ ذات ليلة ـ رأى «طائر النار» وسمع في أذنيه صوت أخيه وعرف أنه على قيد الحياة. كيف أنه ـ وهو متعب من عبور مستنقعات ـ بلغ الضفة الأخرى من نهر خوكار فوجد نصالاً في انتظاره. كيف

أن فرسه تمزقت ولفظت أنفاسها في الوحول. كيف أنه أضاع حرزه حين سقط تحت الفرس. حرز في داخله آيات كريمة وقطعة قماش حمراء من رداء أخيه الربيع. كيف أنهم رموه في غرفة دائرية موصدة تعلو برجاً يعلو البحر. كيف أنه سمع آنذاك صوت البحر للمرة الأولى في حياته. كيف أنه قبل أن يفتح عينيه اعتقد أنهم قطعوا جسمه نصفين. كيف أنهم لم يقطعوا رأسه لأن أحد الفرسان قال إنه رآه من قبل في بلنسية قرب كنيسة خارجاً من قداس أو سائراً في زياح. كيف أن إسبانياً بذراعٍ واحدة يدعى ميغيل آنخيل حاول مساعدته ثم أرسله عبداً يجذف في سفينة مع أسرى وعبيد. كيف أنه، بينما يُثقَل بالحديد ويُقاد من حبسه إلى فناء أصفر تحيطه أسوار صفراء ويعجّ بعبيدٍ ممزقي الثياب، تذكر أنه رأى كل هذا قبل سنين في المنام، وأنه رأى أيضاً وجه الربيع بين وجوه العبيد آنذاك. كيف أنه في الطريق إلى السفينة الإسبانية، بينما يقطعون كروم عنب مرفوعة على عواميد، أحسّ أنه ما زال يرى ذلك المنام. وأن كل ما يحدث له منذ غادر بيت أهله في غرناطة، منذ دفعت أمه صرّة الزوادة في يده، لا يحدث في العالم الحقيقي بل في عالم الخيال. كيف أنه حين أشرف على البحر، ورآه كاللبن المسفوح فوق حجارة الشاطئ الخضراء، أيقن أنه ليس هناك، في تلك المدينة التي تدعى بلنسية وراء الحدود، وأيقن أنه يحلم مناماً غريباً وطويلاً وهو يتمدد في غرفته تحت المشربية في بيت أهله، في بيته، في غرناطة. كيف أنه أحسّ عندئذٍ بالنعاس. وأنه ينام واقفاً. بجسمٍ ثقيلٍ ثقيل.

وكيف أنه أحسّ للحظة أن هذا المنام لم يبدأ لحظة مغادرته غرناطة إنما قبل ذلك بوقتٍ طويل. كان يسمع فرقعة سياط ولا يسمعها. وأيقن أن المنام بدأ حين كان لا يزال ولداً يرعى الخِراف مع أخيه الربيع في البرّية وراء مزارع الموز وقبل غابات غرناطة الشرقية. كان يتراخى تحت شجرة تين وأنعسه منظر الخِراف تقضم رؤوس الكلأ وأنعسه منظر الأسوار الزرقاء في أعلى التلال وأنعسه الهواء العليل. نام تحت التينة ورأى في المنام أن الربيع يوقظه، وأن الربيع يخبره عن خِراف خمسة ضائعة، وأن الربيع يضيع في الغابة وهو يبحث عن الخِراف، وأنه ـ هو، محمد ـ يعود في ذلك المنام وحيداً إلى البيت. أيقن أنه في منام ثم فرقع سوطٌ فوق رأسه وفتح عينيه يقول لنفسه إن الصوت طنين بعوضة علقت في الناموسية، ولم يرَ حين فتح عينيه حيطان غرفته، ولم يرَ حين فتح عينيه الأسوار الزرقاء فوق خط التلال، ورأى سفينة هائلة كحصن مفتوحة الجانب، ورأى جسراً خشبياً يمتد فوق الزبد والرغوة حتى رمل الشاطئ المخضر.

حكى عن السفينة والتجذيف والعرق وهجوم سفن البربر وبلوغه سبتة وصديقه إمام الجامع ابن مرانة الخطيب المصاب بالقولنج. حكى عن رحيله عن سبتة وأسفاره في الداخل وبلوغه مراكش وكيف أنه قطع جبال الأطلس وكيف أنه عمل عشّاباً في قُرى، ووراقاً في مدن، وراعي خراف وإبل في دساكر وضيع، وناطوراً في مزارع وبساتين.

كانت حكاية طويلة، وولج النهار وقت الغروب.

[71]

بعد صلاة العشاء غادرا الجامع يمشيان متلاصقين في النور البرتقالي ـ الرمادي، كأبٍ وابنه. جاوزا مزارع متصلة تعرف بالملعب، ودارا حول قصر «بني الأغلب» المغروسة حديقته بجميع الثمار وأصناف الرياحين، ومشيا حتى باب أرطة. كان المساء يخيم. بعد مقبرة سوق الأحد أبطآ السير يتفرجان على ضفادع كثيرة خضراء، مفروشة كبساط، عند غدير الفحامين، كل ضفدع منها بقدر جوزة. تسلقا هضبة في الضوء المتلاشي إلى أن بلغا بناء دائرياً بابه رخام، ونوافذه مؤطرة بخشب يلمع كأنه طُلي زيتاً. من تلك النقطة العالية، كانت تُرى الملاحة خارج أسوار المدينة، ضفافها بيضاء تبرق في عتمة المساء.

كان الشيخ شهاب الدين سأله، بعد أن أخبره الغرناطي حكايته، هل يجوز أن يبقى كل هذه المدة غائباً عن أهله، وهم لا يعرفون عنه خبراً؟ ثم هو، محمد، ماذا يعرف من أخبار أهله الذين تركهم في غرناطة قبل سنين؟

سكت محمد الغرناطي.

سؤال الشيخ ظلّ معلقاً في الهواء، في الفضاء الفاصل بين رأسين ينحنيان صوب الأرض.

قال محمد:

ـ حين ضاع أخي فقدنا كل شيء. لم أقل لأمي لماذا أغادر البيت. قلت شيئاً لكني أعرف أنها كانت تعرف. كانت تعرف.

سأله الشيخ:

ـ تعرف ماذا؟

قال محمد:

ـ أني ذاهبٌ أبحث عن أخي. أني لا أريد أن أعيش الحياة كلّها وأخي في محل بعيد لا أراه ولا يرانا. أني سوف أجده. وأني سوف أعود به إلى البيت. كانت تعرف.

قال الشيخ:

ـ لكنك تائه في هذه المجاهل، وبعيداً من الأندلس، منذ سنين؟

ظلّ محمد صامتاً. ارتفع الآذان.

رفع الشيخ يده، للمرة الثانية، وربّت على كتف محمد.

قال له:

ـ قمْ! نصلّي في الجامع ثم نتعشى في داري. لن أتركك هذه الليلة. لن تفلت.

قال الشيخ شهاب الدين أبو عبد اللّه السفاقصي، لمحمد الغرناطي، أنه لن يتركه.

قال: «لن أدعك هذه الليلة. لن تفلت».

ثم كرّر القول ضاحكاً، ضحكة خفيضة، بينما يتسلقان اثنتي عشرة درجة إلى جامع تونس.

ولم يكن محمد الغرناطي يدري ـ وكيف يدري؟ ـ أن قلبه تعلق بأريحية هذا الشيخ ورقّة شعوره، وأن هذا التعلق يوصله في أيامٍ لا يجاوز عددها أصابع اليدين إلى حياةٍ جديدة.

للشيخ ثلاث بنات ما زلن في داره التي تتوّج هضبة. محمد الغرناطي تزوج الصغرى.

[72]

سألها عن أقدم شيء تتذكره.

لم تفهم ما يقصد.

انتظرت أن يفسر قصده.

هو هكذا. يقول أشياء تبدو غريبة وغير مفهومة. لكن ـ بعد ذلك ـ حين يفسر ما يقصد، تنتبه، وتفهم. تجد ما يقوله عجيباً. لم تعرف من قبل أن كل هذه الحكايات، كل هذه الأخبار، كل هذه البلاد، موجودة في الأرض.

قال لها:

ـ هذا أقدم ما أتذكره: أنا قاعد مع أخي على سلالم الخشب، وجدّي يقلّم شجرة البرتقال في البهو تحتنا، ويرمي الفروع بورقها الأخضر على وجه البركة.

كانا يجلسان على طراحة في مدخل الدار الجديدة، وطيور تغرد في شجر البستان الكثيف.

أبعد خصلة شعر عن وجهها. تأمل انتفاخ بطنها الخفيف.

هبّت نسائم بليلة وحركت الأغصان والعشب.

قالت:

ـ أقدم ما أتذكره أننا نجلس في بيت جدّي في سفاقس. والزيتون مفروش في أرض الدار. وأبي يحكي مع جدي عن المواسم والزيت والسفن التي تبحر إلى المغرب ومصر وصقلية. أنا وأخواتي وأمي ونساء كثيرات، خالاتي وجدتي ولا أتذكر من أيضاً، قاعدات على الأرض ننقي الزيتون، وهما في الباب يتكلمان عن السفن وتلك البلاد البعيدة والبحر.

سألها عن أجمل شيء عرفته.

لم تقل شيئاً.

قال لها

ـ رأيت مرة طائراً...

وأخبرها عن «طائر النار».

وتوقف هنيهة ثم حكى لها عن الفتى الذي التقاه في الغابات، فظنّه أخاه، أو ذلك الرجل البلنسي الذي ربما يكون أخاه.

سمع آذان العصر.

قام واقفاً.

قالت:

ـ أنت.

قال:

ـ ماذا؟

قالت:

ـ سألتني عن أجمل شيء عرفته. أنت.

[73]

سبع سنوات مرّت عليه في تونس.

جاوز بكره حامد الرابعة.

كانت تجارة الزيت تحمله أحياناً بالبحر إلى مدن على الساحل. أدهشته الإسكندرية. كانت لشدّة بياضها لا يكاد يبيّن دخول الليل فيها إلاّ بعد وقتٍ. تجارها أخبروه أنها كانت أشدّ بياضاً في زمان طفولتهم البعيدة...

ـ كان الناس يمشون فيها وفي أيديهم خرقٌ سود خوفاً على أبصارهم، وكان الخيّاط يدخل الخيط في الإبرة بالليل، لقوّة بياض الحيطان والطرقات.

كثرة الآبار في طرابلس الغرب ذكّرته بتونس، وبالبرّية وراء داره. صلّى في مسجد الشِعاب. سار مع التجار عبر البساتين إلى شرق المدينة، وتفرج على سبخة فسيحة يرفع منها الملح. دلّوه إلى بئر يسمونها بئر أبي الكنود وسط الأسواق، وضحكوا وهم يرفعون دلو ماء، ويغطسون أكواب الخشب فيه...

ـ من شرب ماء هذه البئر يحمق. نقول في البلد إذا أتى رجلٌ بما يلام: لا يُعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي الكنود.

أخذ كوباً وملأه وقلبه على فمه.

قال والمياه تقطر من لحيته:

ـ الآن صرنا أهلاً وأخوة.

ضحكوا. ابتاعوا حمولة المراكب كاملة.

في سوسة تذكر الزهراء، امرأته. أمها من سوسة. حين كانت الزهراء صغيرة أخبرتها أمها قصصاً عن أهل سوسة. أكثرهم حاكة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة، الثوب منها يزيد ثمنه عن عشرة دنانير. يُغزل فيها غزلٌ تُباع زنة مثقال منه بمثقالين من الذهب.

المهدية، البعيدة من سوسة ثلاثة أيام، ردّته في الزمن إلى الخلف. تذكر بلنسية وتسارعت دقّات قلبه. على ظهر المركب، وسط مرسى المهدية المنقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً، نظر إلى سور المدينة وأبواب الحديد وصهاريج الماء، وأحسّ الأشياء تتضخم وتتضخم وتتضخم في عينيه. كأنه محموم. كأنه يعاني أعراض السوداء. عاد إلى تونس مريضاً.

[74]

قطع بحر الروم إلى مالقة في الأندلس. كان الطقس رائقاً، وجسمه ما زال متعباً من المرض. طوال عشرة أيام تقلّب في فراشه في تونس بين الموت والحياة. الحمّى باتت في عظامه ليالي بدت بلا نهاية. سالت المياه من مسامه ومن عينيه، ورنّ العظم في جلده.

واقفاً في مقدمة السفينة، والأندلس تقترب رويداً رويداً، أغمض عينيه.

نام ليلة في خان للمسافرين قرب مرفأ مالقة. في الصباح انطلق على فرس بربرية ميمماً شطر الشمال. على سرج سابح، نسي كل ما حدث له منذ غادر بيته في ذلك الخريف البعيد.

بعد ثلاثة أيام بلغ غرناطة. نظر إلى سهول الموز كأنه يراها للمرة الأولى في حياته. ما كان يعلم أنه سيرى هذا المشهد مرة أخرى. وها هو يراه. في السماء الزرقاء العالية حلقت أسراب الكراكي واللقالق. مثلثات بيضاء ووردية تسبح غير آبهة بالأرض والناس على الأرض.

الزقاق المفضي إلى البيت بدا على حاله، كأنه غادره على فرسه بالأمس فقط.

قبل أن يقرع بوابة البيت، بيت الطفولة، بيت الأهل، بيته القديم، سمع عاصفة من الأصوات تنحدر من أعلى. انفتحت البوابة بعد لحظة ورأى أعصار ألوان كعمود ماء وسط البحر. ألوان تخفق في أرجاء الدار. فوق البركة والسلالم والورود والشجر والعتبات والجرار. طيور لا تحصى. وفي نور العصر الأحمر رأى أمه، بجدائل بيضاء ظاهرة من تحت منديلها الكحلي القاتم، قاعدة قرب البركة، تخيط كنزة صوف.

اقترب فرفعت رأسها.

قالت:

- ابني.

كانت تحدق إليه. تجاهد كي تراه. وانتبه أن إحدى عينيها مطفأة. اقترب وركع وقبل يديها. أخذت رأسه بين أصابعها، ورفعت وجهه إلى عينيها. قالت:

- إبني.

قال:

- عدت. تأخرت لكني رجعت.

ارتجف صوته وسكت.

قالت:

- ابني الربيع.

تجمدت عضلاته. كانت تقبل رأسه. قال:

ـ أبي؟

قالت:

ـ مات.

قال:

ـ متى؟

قالت:

ـ قبل سنين ذهب أخوك محمد في رحلة إلى قرطبة ولم يرجع منها. قال إنه سيرجع في عشرة أيام. لم يرجع. أبوك كان مريضاً. منذ ذهبت كان مريضاً. ذاب بين يديّ. تلاشى كأنه يتبخر في الهواء.

وقف محمد. كانت الطيور تخفق فوق رأسه. وقفت أمه. يداها على كتفيه. ورأسها يواجه صدره.

قالت:

ـ ابني. ابني الربيع يرجع بعد كل هذه السنين.

قال لها:

ـ رجعتُ.

قالت:

ـ أين كنت يا ابني؟ ماذا فعلت طوال هذا الوقت؟

نظر محمد إلى وجهها العجوز.

نظر ولم يرَ وجهها.

أصوات غرناطة تجيء من الزقاق والبوابة المواربة.

لم يسمع الأصوات.

لم يرَ وجه أمه ولم يسمع صوت غرناطة.

كان يفكر في تونس. وفي بيته هناك.

أحسّ بتعبٍ شديد. أثقال تشدّه نزولاً. كأنه يغرق في الطين. سالت مياه في عينيه. وحين حاول أن يتحرك رنّت عظامه.

فتح عينيه. جفناه يحترقان، لكنه فتح عينيه. عبر غمامة دافئة رأى الزهراء.

كان في فراشه في تونس محموماً.

منذ رجع من المهدية مريضاً، بعد رحلته الأخيرة، لم يغادر الفراش.

كل يوم يعوده الشيخ شهاب الدين وخلاّن وتجار من معارفه.

يمضي النهار ويمضي الليل والزهراء لا تفارق جنبه.

حين ينام تسمعه يهذي.

الحرارة لا تفارق جسمه.

أغمض عينيه ثم فتحهما. الزهراء تمسح رأسه بالثلج. قالت:

ـ كنت تهذي. تتكلم مع أهلك.

جفف جبهته بمنديل.

أغمض عينيه من جديد.

في نصف الليل استيقظ فرأها قاعدة قربه في ضوء القناديل.

قال:

ـ أبي مات. رأيت أمي في بيتنا في غرناطة. لم تعرف من أنا. ظنَّتني أخي.

أنحنت الزهراء فوقه.

لمست عينيه برؤوس أصابعها.

سألته هل يوجعه جسمه كثيراً.

قال:

ـ كانت الطيور تملأ الفضاء. والألوان تتطاير منها كشرر النار. وكنت أفكر في شيء واحد فقط.

قالت الزهراء:

ـ ماذا؟

حرّك ذراعه. كأنها ليست ذراعه. جسمه تراخى كأنه سُلِق في قدر ماء. عرفت ماذا يبغي. أمسكت بيده.

[75]

بلَّ من مرضه في يومٍ حلو الشمس أزرق السماء.

فرشت له الزهراء أمام الباب.

طرطقت أطرافه كأغصان يابسة.

تمدّد في تيار الهواء.

رآه حامد من البستان فركض إليه ضاحكاً.

أجلسه جنبه.

دلّه إلى الغيوم، إلى الأشجار، إلى أسماء الأعشاب.

عصراً، توضأ، وصلّى.

أتت الزهراء بالخبز واللبن والخضر.

قال لها:

ـ تسمعين حكاية؟

وأخبرها قصة بناء القيروان.

[76]

«... في أيام معاوية، رضي اللّه عنه، جمع عقبة بن نافع جيشاً وسار إلى إفريقيا، فنازل مدنها ووضع السيف في أهلها، وأسلم على يده خلق من البربر. فجمع عقبة حينئذٍ أصحابه وقال:

ـ إن أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم، إذا عضّهم السيف أسلموا وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عادتهم ودينهم. ولستُ أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأياً، وقد رأيت أن أبني هٰهنا مدينة يسكنها المسلمون.

فاستصوبوا رأيه. فجاؤوا إلى موضع القيروان وهي في طرف البرّ وهي أجّمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيّات من تشابك أشجارها. وقال:

ـ إنما اخترتُ هذا الموضع لبُعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها وهي في وسط البلاد.

ثم أمر أصحابه بالبناء، فقالوا:

ـ هذه غياض كثيرة السباع والهوام فنخاف على أنفسنا هنا.

وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى:

ـ أيتها الحشرات والسباع نحن أصحاب رسول اللّه، صلَّىٰ اللَّه عليه وسلَّم، فارحلوا عنّا فإنا نازلون فمن وجدناه بعدْ قتلناه.

فنظر الناس يومئذٍ إلى أمرٍ هائل. كان السبع يحمل أشباله، والذئب يحمل أجراءه، والحيّة تحمل أولادها، وهم خارجون أسراباً أسراباً. فحمل ذلك كثيراً من البربر على الإسلام.

ثم اختطّ داراً للإمارة واختطّ الناس حوله وأقاموا بعد أربعين عاماً لا يرون فيها حيّة ولا عقرباً.

واختطّ جامعها فتحير في قبلته. فبقي مهموماً فبات ليلة فسمع قائلاً يقول:

ـ في غد ادخلْ الجامع فإنك تسمع تكبيراً فاتبعه، فأيّ موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التي رضيها اللّه للمسلمين بهذه الأرض.

فلما أصبح سمع الصوت ووضع القبلة. واقتدى بها بقية المساجد، وعمّر الناس المدينة».

[77]

أول يوم نزل فيه إلى السوق، بعد الشفاء، زاره في دكانه الكبير، تجارٌ مقدسيون، أتوا إلى تونس في مركبين.

كان يرسل بضائع إلى بيت المقدس من دون أن يركب البحر إلى هناك.

وكانوا يعرفون اسمه، من دون وجهه.

جلسوا، وتحدثوا، وشربوا توتاً مبرداً بثلج.

أرسل صبي الدكان إلى السوق، ليشتري شواء، وما ينفع للغذاء.

كان ما زال متعباً من المرض الطويل، لكنه أصغى إلى حديثهم عن أحوال مدينتهم، وعن مظالم الفرنجة، وعن المكوس الباهظة على تجارتهم. كان مغتبطاً لوجوده بين الناس، ووسط أصوات السوق، من جديد.

كانوا يتحدثون عن الموسم، والفروق بين زيت الشام وزيت المغرب، حين سأله تاجر منهم عن الأعشاب التي يستعملها في زيتونه «الأندلسي» الذائع الصيت.

ابتسم محمد أبو حامد الغرناطي، وقال إنها أعشاب برّية تنمو في الحقول.

ضحكوا، وقال التاجر:

ـ أسألك لأن رجلاً إفرنجياً في بيت المقدس يعرف أسرارك، ويبيع زيتوناً كزيتونك تماماً، في النكهة وقساوة الحبّة وطول أمد صلاحها ولمعة قشرتها.

قال محمد الغرناطي مبتسماً:

ـ لا بأس عليه، يكون نبيهاً.

ضحكوا مرة أخرى، وقال التاجر:

ـ هذه أسرار بلاد، وليست أسرار أناس. أنت من غرناطة، والإفرنجي من بلنسية، مدينتان في برّ واحد. هذا سرّ زيتونكما.

ضحك الجميع، إلاّ محمد:

ـ بلنسي؟

[78]

ـ بلنسي؟ رجل من بلنسية، قلت؟ وتعرفه؟ رأيت شكله؟

ران سكونٌ على رؤوس التجار المقدسيين.

الضحكات تلاشت.

الرجل الغرناطي لم يعد هو نفسه.

تبدل في لحظة.

بانت حدّة في نظرته.

وتوترت نبرة صوته.

قال التاجر:

ـ لم أرَه. ذقت زيتونه، وهو كزيتونك. لم أرَه. مخزنه في جانب من المدينة نتجنب الدخول إليه. بسبب الفرنجة.

حدَّق الغرناطي في الوجوه وجهاً وجهاً.

ـ أحدٌ منكم رآه؟ هذا البلنسي!

تداخلت الوجوه. كانت وجهاً واحداً. واستمر الصمت.

[79]

ربّان سفينة قادمة من طنجة، أخبره، في المرسى، عن معركة دارت في أُقليش وخسرها الفرنجة.

أُقليش الأندلسية.

تلك مدينة أمّه.

وأهل أمّه.

بدا هذا غريباً.

يسمع عن رجلٍ في بيت المقدس (الفرنجة يسمّونها «مملكة القدس») يبيع زيتوناً كزيتونه، رجل من بلنسية، يحرك فيه الشكوك، شكوك كالوساوس، لا يفهم كيف ملأت رأسه.

ثم يسمع عن معركة في أُقليش، جنوب نهر تاجة، تُثير فيه الذكريات، وتُعيد إلى باله قصصاً سمعها من أمّه في زمن الطفولة.

بدا هذا غريباً.

أيام قليلة فصلت بين الخبرين.

[80]

انتصف خريف 1113.

غلبت الماليخوليا على دماغه.

أراد السفر إلى بيت المقدس ثم امتنع عن ذلك. قصة الرومي الأصفر الشعر الذي يخنق سبعة عشر مسلماً، وهو قاعد على عتبة، كانت كالتنين أمام وجهه. يتذكرها، ويتذكر الوجه القديم ـ المصقول كالرخام ـ هارباً في الصحاري، فيثقله الغمّ ويفزع، ويلازم مجلسه قرب النافذة.

سبعة أيامٍ مكثت الدنيا والشمس على الحيطان كالملاحف المعصفرة.

سبع ليالٍ راقب النجوم تموج في السماء، والكواكب كالجراد متناثرة.

ذات أصيل أخذته رعدة. غطّته الزهراء باللحف، بكل أغطية الدار ـ وهو يرتعد ويصيح ـ وأوقدت ناراً قربه.

حين ذهبت الرعدة، قَلَت له سمكاً.

أكل، وشرب، وقال تعالي جنبي.

نظرت إليه قاعداً على الطراحة، ثم اقتربت.

قال:

ـ سأسافر إلى بيت المقدس.

وضعت عينيها في الأرض.

صباحاً، بينما يسرج الفرس، جاء خبر الشيخ شهاب الدين السفاقصي.

مات بعد الوضوء، وقبل أن يصلّي الفجر. ابنته الكبرى رأته عبر الدار الفسيحة، يترنح في غلالته البيضاء بين عواميد الرخام. ثم يسقط على العتبة.

[81]

لم يسافر إلى بيت المقدس.

بعد الدفن، في أيام العزاء، أعاد اكتشاف الوحدة الكاملة.

أخذت الزهراء الولدين، وباتت تقضي معظم أوقات النهار في البناء الدائري الفخم الذي يتوّج الهضبة.

هو، وحيداً في الدار الفسيحة، بين البساتين، اعتاد الجلوس في الديوان، وقراءة كتاب «دفع الأحزان» للكندي.

«. . . وإن من حزن من الناس وجلب لنفسه هذا العارض فهو لا محالة سيسلو ويعود إلى حاله الطبيعي. فقد شاهدنا قوماً فقدوا من الأولاد والأعزة والأصدقاء والأحبة ما اشتد حزنهم عليه، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حال المسرة والضحك والغبطة، ويصيروا إلى حال من لم يحزن قط. وكذلك حال من يفقد المال والضياع وجميع ما يقتنيه الإنسان مما يعز عليه ويحزن فإنه لا محالة يتسلى ويزول حزنه ويعاود أنسه واغتباطه. . .».

[82]

كانت تجيء لحظات فيحسّ بينما يقرأ أن الكلمات تذوب حبراً في حدقتيه. يرى ماء يتبخر من صفحات المخطوط فيفرك عينيه ويرفع نظراته عن المجلد. عبر النافذة المشرعة يرى الهواء أزرق بين الأشجار، يفرقع كعيدان خضراء تحترق، في نور الخريف.

كان يخرج ويتمشى في الأنحاء. يصلّي الظهيرة في الدار، أو يمضي بين الصّبار والسفرجل، بفروة على كتفيه، ويتسلق اثنتي عشرة درجة إلى باحة الجامع، ثم يتوضأ، ويرفع رأسه إلى السماء. كأن السماء تنخفض قليلاً في هذه الأيام، عند الظهيرة، ثم تعاود الارتفاع.

يتنزه مبتعداً عن صخب الأسواق، حتى يبلغ قبر المؤدب محرز. يجلس على صخرة هناك، ويتفرج على أغنام ترعى العشب حول الكوخ الموصد. هنا عاش أول نزوله في تونس. باب الكوخ موصد لكن جانباً منه تساقط على العشب والتراب، وعلى معالفٍ مكسورة تناثر خشبها القديم بين الأغنام.

يغادر الصخرة ويسرع مبتعداً.

هذه المناظر لا تذهب بانزعاجه.

هذه المناظر تجعل بدنه كلّه سوداوياً.

كان يعلم أنه جاوز الثالثة والثلاثين.

كان يعلم أن أخاه فُقد قبل اثنتين وعشرين سنة.

كان يعلم أنه يتيه في المعمورة منذ خمس عشرة سنة.

في طريق العودة، رأى عبر فسحات بين الصبّار والسفرجل، حفر ماء متباعدة تجمع فيها المطر. ضوء المساء برق كالفضة المذابة على صفحاتها.

توقف أمام البساتين التي تسوّر الدار. لم يدخلها. استدار ذاهباً باتجاه هضبة يتوِّجُها بناء دائري فخم.

أراد أن يرى الزهراء.

أراد أن يرى ولديه.

وأن يرى حامد ينظر إليه ويضحك.

[83]

حين انتهت أيام العزاء نظر إلى الزهراء فرأى أن لمعة انسلت من عينيها وتبدّدت.

في منامٍ رآها جالسة بين نساء كثيرات، وكلّهن يتلفعن بأبيض ناصعٍ كاللبن، في ظلال شجرة برتقال مثقلة بالثمار. تسقط ثمرة فتقشرها إحداهن وتوزع الفصوص على الجميع.

رأى أمّه بين النساء. ورأى الجارية البلغارية التي جلبها الشيخ القرطبي ذات عصر مثلجٍ إلى البيت وأفرد لها جانباً منه مفصولاً عن القبة الحمراء بممرٍ هلالي الشكل غير مستقيم يغطي أرضه سجاد أصفهاني. كانت الجارية تحجب وجهها ببرقع من الأطلس بلون الثلج، وحين التفتت صوبه، في المنام، لم تره، ونظرت عبره كأنها تنظر عبر الهواء.

فتح عينيه في الظلام.

كانت الزهراء نائمة. أنفاسها منتظمة.

غادر الفراش.

وارب النافذة.

مطرٌ غزيرٌ كان ينهمر كالسيل فوق المعمورة.

[84]

غادر تونس في موسم تفتح الأزهار. على الفرس العالية، معلقاً في الفضاء، على الرحال الملبس بالديباج، ونسائم عليلة تلامس وجهه، أحسّ نفسه يغادر جسمه.

الهواء يرفع روائح الأرض في الفضاء، والسماء تمتد شاسعة. غيوم تتفرق في القبّة الزرقاء. وهو كأنه ليس هو.

التفت ونظر إلى تونس تبتعد وتغيب.

هذه مدينة ليست كالمدن.

عنده في تونس بيت.

عنده الزهراء وحامد والهادية.

جذور تضرب عميقاً في الأرض. لا تتلاشى.

أغمض عينيه.

أراد أن يستعيد ذلك الإحساس القديم.

أن يغمره النسيان.

أن لا يكون هو.

أن يكون لا أحد.

امتدت الدرب أمامه، تتعرج بين النخل.

[85]

نام ليلة قبالة خليج الحمامات، وليلة قبالة خليج قابس. بعد ليلتين من النوم العميق في أرضٍ لم يألفها جسمه، عاوده ذلك الإنشراح الغامض الذي لم يعرفه منذ أمدٍ بعيد. أحسّ كأنه يسبح في فراغٍ عظيم، يتعلق بحبالٍ خفيّة، ويخطو على ذرّات الهواء.

تزوّد بالمياه في الغُزيرة، وقطع الأطراف الشمالية لصحراء الحمادة الحمراء، فبلغ العُقيلة بعد أيام، منهكاً، وجلده كلّه قد تفلّع، وامتلأ حبيبات رمل.

في شمال دمياط، بعد أيام لا يعرف عددها، غطّس جسمه في ماء النيّل، ومكث مغمض العينين، والطمي يداوي شقوق جلده.

شموسٌ لا تُحصى، وأقمارٌ لا تُحصى، طلعت عليه، تتبادل الدور، وهو يخترق البِقاع، مبدلاً المطايا، وعيناه غائمتان.

كان التقى قبل أيام في الإسكندرية تجاراً من معارفه لم يعرفوا وجهه لشدّة ما أحرقته الشمس.

غَمره النّيل يهزّ جسمه هزّاً خفيفاً. وكان يغفو، والماء البارد ينزل في شقوق جلده ويطش على حجارة حامية في جوفه، وهو يكاد أن ينام.

رأى شجرة تفاح تتفرع أغصانها فوق النهر. كانت الشمس تلمع ضعيفة على الضفتين. ورأى صبية يركضون، وحميراً تحمل سلال عنب. هوى عنقود في الهواء ورأى حبّاته. صنف كالزبرجد الأخضر وصنف كالياقوت الأحمر وصنف كاللؤلؤ الأبيض.

وسمع صوتٌ يقول في أذنه:

ـ هذا حصرم الجنّة وعنبها.

فتح عينيه. كانت المياه تغمر عنقه. خرج من النّيل. لبس ثوبه وجلس يتفرج على النور يغادر السماء.

طيور بوقير صاحت فوق صخورٍ على الضفة الأخرى. هذه طيورٌ لم يرَ مثلها في بيت أبيه في الأندلس.

[86]

لن يعثر على الرجل الذي يبحث عنه في بيت المقدس. رَحَلَ البَلَنسي قبل أن يصلّ الغرناطي إليه.

التقى محمد أبو حامد الغرناطي في غزّة تاجراً مقدسياً أخبره بما جرى في «مملكة القدس».

الفرنجة تقاتلوا. أحرقوا بيوتاً لأمراء منهم، وأحرقوا مخازن، وأحرقوا زرائب، وأحرقوا حقولاً.

ـ فرنجة يقتلون فرنجة، ونحن نتفرج.

مخازن البلنسي احترقت. شعلتها في الليل بلغت السماء، أضاءت دروب بيت المقدس وشعشعت كالشموس على نحاس القِبب.

الفرنجة الذين هُزِموا فرّ معظمهم إلى طرابلس وأنطاكية.

ـ وبين الذين قُتلوا «الخنّاق الجرماني». قُتل شرّ قتلة.

قال محمد الغرناطي:

ـ الخنّاق. . . ؟

قال التاجر:

ـ هذا رجل رهيب، اسمه بطرس، قتل عدداً لا يُحصى من المسلمين. يمدّ كفّه اليمنى ويمسك بالآدمي من زلعومه ويشدّ بأصابعه حتى يقطع الزلعوم.

قال الغرناطي:

ـ كيف قُتِل؟

قال التاجر:

ـ دخلوا بيته من الشبابيك. كان حارسه واقفاً خارج باب الحمام. رماه واحد بنشابة، وآخر بسهمين. نشابة أصابت كتفه، سهم نضم فخذه، وآخر مال بترقوته. انتزع السهام صائحاً وفرّ إلى الديوان. لحقه واحد وضرب يده فقطعها. وقفز آخر فحز رأسه. بعد ذلك دخلوا الحمام. كان «الخَنَّاق» يتمدّد نائماً في مياه تفور. الحرارة لا تؤثر فيه. نحيل ومملوء عقداً كغصن زعرور، ويده اليمنى تتمدّد على الحجر خارج الماء. قطعوا يده بفأس. تناول كرنيب فضة وهجم عليهم. شقوا بطنه فهوى على أرض الحمام. ظنوا أنهم قتلوه.

خرجوا إلى البهو يمسحون دماء سيوفهم على المطارف والحشايا فسمعوا ضجة. دخلوا عليه ثانياً فرأوه قد ردّ حشو بطنه، وأمسكها بيده الباقية، وكسر جامة الحمام وهمّ بالخروج. سحبوه من ساقيه وحزوا رأسه.

[87]

نزل ليلة في خانٍ يعجّ بالتجار والحجاج والمسافرين.

كان الطقس حاراً. اجتمع النزلاء في جانب مفتوح على الهواء الغربي. كانت النجوم تملأ السماء. أكل تيناً غزّاوياً حلواً كالعسل، وسمع حكاية لن ينساها. حكاية سيتذكرها في السنوات المقبلة كلّما ذاق حبّة تينٍ في بلد من البلدان.

ـ تلّ في خوارزم تعلوه قبّة خضراء بحجم غرفة، لها أربعة أبواب من لبنات الذهب الأحمر، وعلى الأرض حولها جواهر كريمة علوها أكثر من ذراع، مكومة كالتاج على قمة التلّ. وحول التلّ ماء راكد يُحيطه كالسوار، لا مادة له إلاّ من المطر والثلج، وعلى وجه الماء رغوة. ولا أحد يقدر أن يقطع هذا الماء. كل من دخله اختلط وغاص ولم يقدر أن يخرج منه أبداً. وإن أُلقي فيه زورقٌ غاص في ذلك الماء. وأي شيء يلقى في ذلك الماء يغوص حتى لو كان خشباً ولا يقدر أحد على إخراجه. صاحب غزنة جاء بجيشه وأقام حول الماء ثلاث سنين ولم يترك أحداً من أهل الرساتيق وأهل خوارزم إلاّ وشغله سخرة

في حمل التراب والخشب والقصب والحجارة والزواريق. فغاص كل ذلك في الماء ولم يؤثر. فانصرف عن المكان يائساً.

ـ كنز يُرى لكن لا يُلمس؟ مصيبة!

ـ هذا نصف الحكاية. النصف الثاني أصعب. كل من بلغ ذلك المحل، ونظر إلى القبّة الخضراء تتوّج التلّ وسط الماء الراكد، أحسّ أنه مقطوع نصفين. نصفه على ضفة الماء الراكد، ونصفه الآخر محبوس في قلب القبّة الخضراء.

[88]

زوّده صاحب الخان في غزّة، الحاج حمادة أبو عبد اللّه المقدسي، بأسماء ثلاثة تجار: اثنان في طرابلس الشام، والثالث في أنطاكية.

قال الحاج المقدسي:

ـ أعرف كل تجار البلاد. فتحت خاناً في بيت المقدس. فتحت خاناً في عكا. فتحت خاناً في يافا. فتحت خاناً في صور. وفتحت خاناً في حلب. تأتي النار إلى هنا فأفرّ إلى هناك. كرّ وفرّ طوال حياتي. وفي كل مدينة جديدة، وكلّما أردت أن أفتح خاناً، تذكرت الخان في بيت المقدس. ورثته عن أبي. وأبي ورثه عن أبيه. وجدي ورثه أيضاً. أحرقه الروم، اللّه يصليهم ناراً لا تنطفئ في جهنم. أحرقه الروم وكدت أن أحترق معه. كل تجار البلاد أعرفهم. تجار الزيت والقطّين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفُوط في جبال فلسطين. تجار الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية والتفاح وقضم قريش والمرايا وقدور القناديل والإبر في بيت المقدس. تجار

النيل والكلس في أريحا. تجار التمور في صُفَر. تجار الحبوب والخرفان والعسل في عمان. تجار السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات في صور. تجار الأرجوان في صيدا. تجار قلوب اللوز في موآب. تجار الرز في بيسان. تجار المعصور والبلعيسي ودهن البنفسج والجوز والكاغد في دمشق. تجار القطن والثياب والأشنان والمغرة في حلب. كلهم ناموا على فرشٍ وتغطوا ببطانيات من عندي. كلهم يعرفونني. ودوابهم أكلت من تبن اصطبلاتي.

فار صاحب الخان كقدر حليبٍ. يحكي والكلمات تتدفق من فمه كسقسقة طيور. حين سكت شكره الغرناطي.

قال الحاج مرة أخرى:

ـ فقط تريد أسماء تجار في طرابلس وأنطاكية؟ لا تريد أسماء تجار في مدن أخرى؟

قال محمد الغرناطي:

ـ أحاول العثور على تاجرٍ رومي كل ما أعرفه عنه أنه تاجر زيت وزيتون وأنه كان يملك مخزناً في بيت المقدس قبل الحوادث الأخيرة. الرجل الذي أخبرني عنه قال إن مخزنه احترق وأنه هرب مع الإفرنج الذين تركوا المدينة إلى طرابلس الشام وأنطاكية.

حدّجه الحاج المقدسي بنظرة من تحت حاجبين كثيفين. قال:

ـ تاجر رومي؟ ما عساك تريد من تاجر رومي؟

[89]

ركب البحر إلى طرابلس في الشمال.

وسط السهل الأزرق المترامي أحسّ بحروق خفيّة في باطن كفيّه. رفع رأسه، شاهد الشراع تملأه الريح، تساءل كيف مضت كل هذه الأعوام، ونظر إلى مجذاف أمام قدميه.

تلك الليلة، نائماً على ظهر السفينة بين الحبال، رأى أنه يسبح نحو جزيرة تبرق البيوت كالزجاج على تلالها. كانت المياه المالحة تدخل أنفه وفمه، وكان يرفع وجهه فوق اللجّة ويبصق، فيرى الجزيرة تبين وتغيب، ويرى سمكاً يطير بجناحين ويحطّ على سطوح بيوتها البارقة كالماس. في مرسى الجزيرة رأى منارة مربعة كأنها منارة الإسكندرية. وحين بلغ درجات حجرية منقورة في الصخر رأى رجلاً يسبح نحوه خارجاً من بيوت تبرق كالزجاج والمياه تغمرها. تحت سطح الجزيرة رأى صورة الجزيرة. ومن صورة الجزيرة خرج أخوه، الربيع.

تسلقا الدرجات الحجرية المنقورة في الصخر.

انتاب محمد الغرناطي إحساسٌ أنه يعرف هذا المكان، وأنه جلس هنا من قبل، ورأى كل هذه المناظر، وسمع أصوات هذه الطيور وتلاثغ هذه الأمواج.

الدرجات الحجرية كانت مغطاة بالطحلب البحري. زلقت قدمه فمدّ ذراعاً وتمسك بأخيه.

قال الربيع:

ـ لم تتغير. كم سنة مرّت؟

قال محمد:

ـ سنين.

قال الربيع:

ـ وماذا فعلت طوال هذا الوقت؟

قال محمد:

ـ كنت أبحث عنك.

قال الربيع:

ـ ووجدتني؟

فتح محمد عينيه. رأى فأراً يسعى بين الحبال.

[90]

أقام في طرابلس خمسة أيام. تجوّل في أسواقها. كَلّمَ التجار. وزار معاصر الزيتون معصرةً معصرةً. لم يعثر على التاجرين اللذين أعطاه اسميهما صاحب الخان في غزّة.

في معصرةٍ تطلّ على بساتين برتقال، وعلى أطلال حجرية عشّشت فيها العصافير، سمع عن رجلٍ رومي جاء إلى المدينة قبل أسابيع، وقال في السوق إنه تاجر زيت وزيتون، وإنه كان صاحب معصرة في بيت المقدس. التاجر الرومي كان يريد شراء دكان في السوق، ثم اختفى، ولم يُسمع له خبر. كثيرون يعبرون هكذا في هذه المدينة القائمة على مرتفع عند شاطئ البحر.

وقف أمام جامع حوّله الإفرنج كنيسةً، ونظر إلى الرخام يُعتم تحت غيوم رمادية. طيور حمام حامت فوق الساحة، وحطّت على قبة كبيرة وسطها. تحت القبّة حوض رخام، وفي الحوض فوّارة من النحاس الأصفر. تأمل المياه تزبد. هبط زوج حمام وتقافز عند الحافة. ملأه يقينٌ غريبٌ أن أخاه في أنطاكية.

[91]

خمسون أو ستون جملاً محملة رماداً دخلت بين الأبراج وتوزعت على الأرصفة. النوتية كانوا يحضرون الجسور. ظهرت بيوض موج تفقس وسط البحر. هذا الرماد يحمل إلى البندقية. هناك يعملون منه زجاجاً بلّورياً لتزيين القصور والكنائس.

وقف محمد الغرناطي بين البحارة والتجار. كان ينتظر مركباً يبحر نحو الشمال، نحو اللاذقية.

انتظر نهاراً كاملاً ولم يبحر مركبٌ.

قالوا إن عاصفة آتية، انظرْ فقش الموج.

في الصباح، تحت رذاذٍ ناعمٍ، غادر طرابلس راكباً فرساً كأنّها فرسه الغرناطية.

[92]

تجنب دخول العريضة. تجنب دخول طرطوس. تجنب دخول بانياس. تجنب دخول جبلة. السحنة الرومية، والصوت الرومي، والعجرفة الرومية. ملّ قلبه كل ذلك. أسقمه الوقوف أمام الحراس، في أبواب المدن، يسألونه من أين يأتي، ماذا جاء يفعل هنا، من يعرف من تجار المدينة وأهلها، هل ينوي البقاء فيها، وإلى أين يذهب منها حين يذهب؟ ماذا يحمل على السرج وفي الجعب، ماذا يحمل في ثيابه، ما قصة هذه الندبة على وجهه، لماذا هندامه مبعثر على هذا النحو، ولحيته لماذا يتركها تطول حتى بطنه؟ هل اشترى الفرس أم سرقها؟

رومية خوتاء في باب إحدى المدن زعقت فيه:

ـ نار تحرق عينيك. سهم يقدح جنبك.

قرر تجنب دخول المدن. أرض إسلام أتاها كفارٌ من طرف العالم يتحكمون برقاب أهلها وأرزاقهم؟ كيف قُدر للروم أن يفلحوا؟

كانوا على الأبراج، يطلّون على السهول والغابات والبساتين

من فوق أسوار محصنة. الشمس تلمع على دروعهم الحديد وعلى سيوفهم. والطيور لا تقربهم.

في غابةٍ شرق بانياس نام ليلة في زريبة مهجورة. إحدى زواياها كانت متداعية، وبرزت النجوم من صدع في الجدار. ربط الفرس، وأشعل ناراً، وتمدّد يسمع وشيش المطر على ورق السنديان.

وَلَجَ عملاق أسود منامه. وقف فوق رأسه وطعن جنبه برمح مكسور.

قال:

ـ انهضْ! الآن تقول ماذا جئت تفعل في هذه الديار! الآن تقول أو تموت.

قال محمد الغرناطي إنه أتى يبحث عن أخيه.

ـ أنا من غرناطة في جزيرة الأندلس. الروم أسروا أخي صغيراً. أخذوه إلى بلدهم. صار رومياً مثلهم، حين زحفوا على هذه الأرض جاء معهم. لحقت به إلى هنا. كي أجده.

قال العملاق:

ـ كيف وصلت؟ الأندلس في نهاية العالم.

قال محمد الغرناطي إنه يسافر منذ زمن بعيد.

قال العملاق:

ـ والبحار؟ والصحاري؟ والسهول والجبال والوديان، قطعت كل تلك المجاهل؟ كيف؟

قال محمد الغرناطي:

ـ قطعتها. لكني لم أعثر على أخي بعد.

قال العملاق:

ـ حين تعثر عليه هل يعرفك؟

قال محمد الغرناطي:

ـ أعرف أنه يشبهني كأنه أنا. لا نختلف إلاً بهذه الندبة على وجهي.

قال العملاق:

ـ أين هو؟

قال محمد الغرناطي:

ـ أنطاكية.

قال العملاق:

ـ كيف تعلم؟

سكت محمد الغرناطي.

قال العملاق:

ـ أنت تكذب.

وطعنه بالرمح المسكور، فثقب بطنه.

[93]

استيقظ بألمٍ في جنبه. طوال الليل نام وعودٌ يابس ينخر خاصرته.

على الفرس، عابراً بين أشجار الغابة، تساقط مطر الورق مثلجاً على عمامته وعنقه وكتفيه. الهواء يتحرك والشجر يطقطق في أذنيه.

عَبَر النهر الكبير الشمالي عند العصر. كانت الفرس تغرق تحته، فقفز عنها، وسبح يجرّها بالرسن، والفرس تصهل.

حين بلغ الضفة رمى نفسه على العشب. تمدّد على ظهره، وصدره يؤلمه. انسكبت السماء بيضاء كالكلس في عينيه.

نام ساعات ثم نهض. النجوم تغطي السماء. الغيوم تبدّدت. عثر على الفرس في بستان فستق قريب. أصلح السرج وانطلق.

في السهل الضيق بين الجبل الأقرع وخليج السويدية رأى عيون ضباع، تلمع صفراء مثلثة وترافقه من بعيد. أدرك أنه يقترب.

[94]

بلغ أنطاكية عند الفجر. كان الحراس يفتحون الأبواب الخمسة. السور استدار في نصف دائرة حول المدينة والتحم عند طرفيه بالجبل الذي يسندها من خلف. على رأس الجبل تربعت قلعة. وفوق السور تعالت مئات الأبراج.

القلعة بدت صغيرة فوق الجبل المرتفع. كان الضوء يطلع من وراء الجبل، وظهرت خطوط بيضاء حوله، ورأى القلعة تتحدد. في نور الصباح بدت أصغر أيضاً. أصغر وأكثر بُعداً وضوء أخضر يلوِّنها. سيطر عليه رعبٌ غامض. كان يلوك حبة تين يابسة، وخيّل إليه أن القلعة على رأس هذا الجبل (جبل هائل يستر عن أنطاكية الشمس فلا تطلع عليها إلاً في الساعة الثانية)، هذه القلعة المرتفعة البعيدة والقريبة في الوقت ذاته. . . خيّل إليه أنها كالقبّة الخضراء المحاطة بماء راكد في إقليم خوارزم.

ـ أخوك الربيع في قلب القلعة الخضراء العالية، قال صوتٌ في أعماقه.

[95]

في قلب أنطاكية تذكر غرناطة. خلال ساعة امتلأت الطرقات بالناس. وأينما نظر رأى قنوات ماء، وبساتين تخترقها جداول غزيرة تهبط من ينابيع الجبل، وحارات فخمة.

مياه تكرج وتتلألأ، تنحدر من الأعالي في زخم، وتتوزع في أقنية بين البيوت والمحلات والقصور والكنائس والساحات والجنائن.

كان سمع عن أنطاكية في رحلاته. شيخٌ في فاس قال له مرة إنه تذكر فاس حين دخل أنطاكية. كل تلك الأقنية، والمياه الناصعة البياض، تسعى سيحاً بلا كُلفة، وحماماتها لا يوجد مثلها في مدينة أخرى لذاذة وطيبة، وقودها الآس ومياهها كأنّها من نهر الجنّة.

في طريق مرصوفة حجراً أحمر، بدكاكين تطوّقها عن الجانبين، وأقواس خشب تظلّلها، أحسّ ببردٍ يملأ عظامه، ورأى دكاناً عميقاً يذهب في ثغرة بين كنيستين ويتوغل إلى حيث لا يدري.

[96]

طوال سبعة أيام بحث في الأسواق، وسأل في الخانات والمعاصر والفنادق.

وجد التاجر الأنطاكي الذي أعطاه اسمه صاحب الخان في غزّة.

لكنه لم يجد البلنسي.

دار التاجر الأنطاكي معه يكلِّمان أصحاب المتاجر والقوافل. عثرا على رجل بلنسي جاوز الثمانين، أعمى، وكل النهار يقعد أمام كنيسة ويكشّ الذباب عن قدميه. بدا أن هذا هو البلنسي الوحيد الذي بلغ أرض أنطاكية.

عصر اليوم الثامن خرج الغرناطي من الخان حيث ينزل، ومشى تائهاً في درب المدينة. رأى أنوار خضراء تتلألأ في مياه الأقنية. رفع رأسه. نظر إلى القلعة العالية تتوّج قمة الجبل. رأى الجداول بيضاء كاللبن تنحدر من تحت القلعة، متعرجة بين أدغال قصب. قرر أن يتسلق الجبل.

[97]

حين بلغ قمة الجبل أدهشه أن يرى كنيسة صغيرة قائمة لصق القلعة، في ظل الحائط العالي. دار حول الكنيسة فرأى كنيسة أخرى تجاورها، وسوقاً تمتد في قوس، وبيوتاً خشبية.

من الأسفل لم يرَ هذه البيوت، ولا هذه السوق الصغيرة، ولا هاتين الكنيستين.

تقدم خطوات فرأى دكاناً عميقاً يذهب في ثغرة بين الكنيستين ويتوغل إلى حيث لا يدري. فكر أنه يعرف هذا الدكان. أحسّ أنه وقف أمام هذا الدكان من قبل. ولم يعلم أين كان ذلك. وقال يكون حلماً رأيته.

أحسّ ببرد. هبَّ هواء العصر. هذا الخريف أم الشتاء؟ نظر حوله. لا أحد. كان دكاناً لا يظهر آخره. مش وفكّر أنه يتوغل في أعماق القلعة. يلجُّ تحت الأساسات ويبلغ قلبها.

كانت الأنوار تتلألأ في ظلمات الدكان العميق. في مدخله رأى خزفاً صينياً لم يرَ مثله من قبله. اقترب وتفرج على منسوجات فارسية وإيطالية كُومت أسفل الحيطان، وعلى سجاد

برسوم منمنمة علق من السقف. أدهشته الرسوم. رأى في رحلاته مناظر، إذا وصفها للغير لن يصدقوا أنه رآها. لكن هذه الرسوم على السجاد! أعداد لا تحصى من البشر عند حافة غابة، أو على ضفة نهر، بوجوه كأنها تحكي، والسجادة ترتجف في الهواء!

تقدم متوغلاً في ظلمات الدكان. الجو هنا دافئ. رأى آلات موسيقى، ومقاعد مزدانة بجواهر، وخواتم وأساور معلقة كالعقود في خيوط حرير ترنّ كلما حرّك جسمه. كانت ضجة المدينة تتلاشى وتموت وراء ظهره. وتقدم كمن يمشي في منام.

أسلحة مذهبة ومفضضة، منّزلة بعاجٍ وفضة وياقوت. أرائك صغيرة مطعمة بعاج وأسلاك فضة ونحاس. صولجانات. مسابح. غلايين. صناديق مذهبة على جوانبها صدف مطعم، وبين الأصداف رسوم منمنمة كتلك التي على السجاد: مدن ووجوه ودروب.

حين بلغ عمق الدكان توقف أمام منظر أعاده سنوات إلى الوراء. رأى قناديل لا تحصى معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملوّن، صحونها نحاس ومعدن وتحت الصحون قواعد بلاط مجزّع، وكانت كلّها تضيء. أشعة حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء وبنفسجية ملأت عينيه. كأن كل القناديل أشعلت في لحظة واحدة، قبالة وجهه، من دون أن ينتبه.

لم يفهم للوهلة الأولى.

لم يفهم لماذا شعر أنه يرجع شاباً صغيراً، الشاب الذي كانه قبل سنين لا يقدر أن يعدّها.

ثم تذكر بدء رحلاته.

تذكر قرطبة ووقوفه قبالة ستارة بيضاء يتوهج مركزها بلون الياقوت.

وتذكر الشيخ أبا يوسف العشّاب القرطبي يجذب الستارة لحظة.

وتذكر «طائر النار» يرفّ بجناحيه فتتطاير منه شرارات حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء وبنفسجية.

في ذلك الزمن البعيد، أمام نيران الطائر في قرطبة، سمع صوت أخيه الربيع في أذنيه.

الآن، قبالة قناديل تتوهج في دكان عميقٍ كبئرٍ تتوغل أفقياً بين كنيستين ضخمتين في أنطاكية، انتظر أن يسمع صوت الربيع من جديد.

سمع حركة خلفه.

استدار.

رأى وجهاً مظلماً.

اقترب الوجه.

أحسّ محمد الغرناطي بالخوف.

بعد آلاف الفراسخ، بعد كل هذه السنين، كان يرى قبالة عينيه، على بُعدِ خطوة واحدة، وجه أخيه الربيع.

[98]

ارتجفت أصابع محمد الغرناطي.

ارتفعت يده في الهواء.

أراد أن يلمس وجه أخيه.

كان الربيع ما زال في الثالثة عشرة.

كان في مئزره الأحمر القديم.

وكان المئزر ممزقاً في طرفه.

تراجع الربيع خطوة إلى الوراء.

قال محمد:

ـ أنا أخوك. أخوك الصغير.

قال الربيع:

ـ ماذا أتيت تفعل هنا؟ كيف بلغت هذه القبّة؟

قال محمد:

ـ أي قبّة؟

قال الربيع:

ـ لماذا جئت؟

قال محمد:

ـ أبحث عنك منذ سنين. عرفت دوماً أنني سأراك مرة أخرى.

قال الربيع:

ـ ما ينفع هذا؟

قال محمد:

ـ أردت أن أراك. ناديتك تلك الليلة. بقيت أنادي وأنادي وأنادي. كل الليل ناديتك.

قال الربيع:

ـ أعلم. كنت أسمعك.

قال محمد:

ـ سمعت ندائي؟

قال الربيع:

ـ سمعته. لكن العتمة... لم أرَ إلاّ العتمة.

سكت محمد. كان يرتجف. ارتجفت لحيته. كان الشيب يخطّها. ونظر إلى وجه الربيع: لم يكبر يوماً.

قال محمد:

ـ لم أعرفِ ماذا أفعل. لو أشعلت ناراً كنت...

قاطعه الربيع:

ـ النار أيضاً ما كانت لتدلّني. شجر كثيف يتلاصق كجدار، ماذا تنفع النار؟

قال محمد:

ـ لو. . .

ابتسم الربيع. لمس طرف المئزر الممزق. قال إن هذا كلّه انتهى قبل زمن بعيد.

قال محمد:

ـ كيف مُت؟

قال الربيع:

ـ لا تفكر في هذا.

رائحة صعتر برّي فاحت في الأرجاء.

كان المساء يهبط.

قال الربيع:

ـ ماذا فعلت طوال هذه السنين؟

قال محمد:

ـ كنت أبحث عنك.

قال الربيع:

ـ اذهبْ إلى أولادك.

جلس محمد الغرناطي على الأرض. كان يبكي.

روايات للمؤلف

1- سيد العتمة، 1992.

2- شاي أسود، 1995.

3- البيت الأخير، 1996.

4- الفراشة الزرقاء، 1996.

5- رالف رزق الله في المرآة، 1997.

6- كنت أميراً، 1997.

7- نظرة أخيرة على كين ساي، 1998.

8- يوسف الإنجليزي، 1999.

9- رحلة الغرناطي، 2002.

10- بيروت مدينة العالم: الجزء الأول، 2003.

11- بيريتوس: مدينة تحت الأرض، 2005 .

12- بيروت مدينة العالم: الجزء الثاني، 2005.

13- تقرير ميليس، 2005.

14- بيروت مدينة العالم: الجزء الثالث، 2007.

15- الاعترافات، 2008.

16- أميركا، 2009.

17- دروز بلغراد، 2010.

18- طيور الهوليداي إن، 2011.

ربيع جابر

رحلة الغرناطي

رواية

ربيع جابر

رحلة الغرناطي

سنة 1091م يفقد محمد أخاه الأكبر الربيع في غابات غرناطة. بعد سبع سنوات يسمع أخباراً عن رجل، ربما يكون أخاه، يتاجر بالقرمز والأعشاب الطبية بين بلنسية وقرطبة.

رجل يشبهه كأنه هو، ويقيم في بلنسية. هذه المدينة تقع وراء نهر خوكار، خارج حدود الأندلس الإسلامية، وضمن أراضي الأسبان المسيحيين.

رحلة محمد لن تنتهي سريعاً. من مدينة الى أخرى، ومن أوروبا الى أفريقيا الى بلاد الشام، يطارد محمد الغرناطي أثر رجل بلنسي قد يكون أخاه.

رحلة طويلة كحياته، تنتهي بعد سنين في أنطاكية التي يحكمها الروم...

«يستطيع ربيع جابر أن يعيد خلق المكان، وأن يرسمه بكل تخطيطاته ومتعرجاته ومساحاته وممراته وعطفاته وزواريبه وأسواقه وحاراته ومساجده وسراياه، بل ويستطيع ربيع جابر أن يرصد تحولاته وما زال وما بقي منه وما تهدم وما ترمم وما تغيرت صورته.. أما التاريخ فربيع جابر يعرف التاريخ بقدر ما يخترعه».

عباس بيضون

«جريدة السفير»

لوحة الغلاف بريشة سي واي تومبلي

ISBN 978-9953-582-58-0

9 789953 582580

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس

بريد الكتروني: darattanweer@gmail.com

موقع الكتروني: www.dar.altanweer.com